

الإصلاح

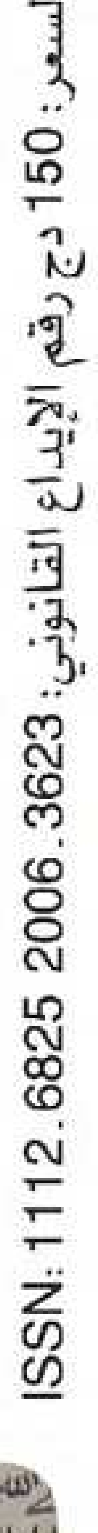
لا يُصلِحُ آخِرَ هَذِهِ الأُمَّة إلاّ مَا أَصْلَحَ أَوَّلَـهَا

مجلة جامعة تصدر عن دار الفضيلة للنشر والتوزيع

السنة السادسة. العدد التاسع والعشرون: محرم/صفر 1433هـ الموافق لـ جانفي/فيفري 2012م



الاعتداد بالنفس


السعر: 150 دج رقم الإيداع القانوني: 3623. 2006 ISSN: 1112. 6825

ولا يزالـون يقـاتلونـكم

التحرير



الشـام موئل الإيمـان

توفيق عمروني





الشيخ العلامة عمر بن محمد فلاته رحمه الله





د.سعود الدعجان



محبة أصحاب الرسول ﷺ وموقف الإمام مالك من الرافضة الذين يسبونهم





بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

إنَّ الحمدَ للهِ، نحمدُه ونَسْتَعِينه ونَسْتَغْفِرُه، ونعوذُ باللهِ منْ شرورِ أنْفُسِنا ومِنْ سَيِّئاتِ أعْمالِنا، مَنْ يَهْدِهِ الله فلا مُضِلَّ لَهُ، ومَنْ يُضْلِلْ فلا هَادِيَ له.

وأشْهَدُ أنْ لا إلهَ إلاَّ اللهُ وحدَه لا شريكَ له، وأشهدُ أنَّ محمَّدًا عبدُه ورسولُه.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾﴾ [سُورَةُ آل عِمۡرَان].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾﴾ [سُورَةُ النِّسَاءِ].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾﴾ [سُورَةُ الأَحۡزَابِ].

أمَّا بَعْدُ:

فإنَّ خيرَ الحديثِ كتابُ اللهِ، وأحسنَ الهَدْيِ هَدْيُ محمَّدٍ ﷺ، وشَرَّ الأمورِ مُحْدَثَاتُهَا، وكُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ، وكلَّ بِدْعَةٍ ضَلالَةٌ، وَكُلَّ ضَلالَةٍ في النَّارِ.



مجلة جامعة
تصدر عن دار الفضيلة للنشر والتوزيع

دار الفضيلة

عنوان المجلة:

دار الفضيلة للنشر والتوزيع
حي باحة (03)، رقم (28) الليدو.
المحمدية ـ الجزائر

الهاتف والفاكس:

(021) 51 94 63
(النقال) (0559) 06 99 92

التوزيع (جوال):
(0661) 62 53 08

البريد الإلكتروني:

darelfadhila@hotmail.com

الموقع على الشبكة العنكبوتية:

www.rayatalislah.com

افتتاحية

الاعتداد بالنَّفس

مدير المجلة

إنَّ من أسوأ ما يُصابُ به المنتَسب إلى العلم والدَّعوة إلى الله تعالى أن يكون معتدًّا بنفسه إلى حدِّ الغُرور والعُجب، المفضي إلى احتقار الغَير وغمط فضل النَّاس والحطِّ من شأنهم؛ ومداخل هذا الدَّاء كثيرة من أهمِّها: الرَّغبة في الدُّنيا، وطلب الرِّياسة والمحمَدة، والتَّكثُّر بالأتباع، وجحد فضل العالم وسبقه وتقدُّمه، وسوء الظَّنِّ به وغمزه؛ فإذا ألَمَّت أحدُ هذه الآفات بقَلب عبد فقَد أُصيب في مقتَل، فكيف إذا اجتمعت وهي تجتمع لا محالةَ؛ لأنَّ سريانَ إحدَاها يستَتبع الَّتي تليها؛ والَّذي يدفع أوضَار هذا السَّقم وأوحَاله هو شهود العبد لربِّه أنَّه الغنيُّ عن كلِّ ما سواه، وشهادته على نفسه أنَّه الفقير المحتاج إلى ربِّه كلَّ لحظة وكلَّ حين، وأنَّ الخير كلَّه بيد الله، وأنَّ النِّعمَةَ كلَّها من عند الله، وأيُّ شيء يصيبُه من ذلكَ إنَّما هو تفضُّلٌ ومنَّةٌ منه سُبحانه وتَعالى؛ وعندها يدرك أن ليسَ لنفسه فضل على أحد يجب أن يوفَّى أو حقٌّ على الخلق يجبُ أن يؤدَّى، قال ابن تيميَّة رحمه الله: «العارفُ لا يَرى لهُ على أحد حقًّا، ولا يشهَد له على غَيره فضْلًا؛ ولذَلك لا يعاتبُ، ولا يطالبُ، ولا يضاربُ» [«مدارج السالكين»: (519/1)].

فالَّذي يملأ الدُّنيا معاتبةً ومطالبةً ومضاربةً، ولا يعترف بخطأ، ولا يرجع عن زلل، ولا يشكر ناصحًا، بل يستَجمع أتباعَه ويهيِّج أشياعَه، ويصوِّب سهامه إلى ناصحيه، الَّذين ـ في زعمه ـ لم يفهموا قصدَه ولم يدركوا مرامَه، وأنَّهم هضَموه حقَّه؛ فيكثِّر تَشغيبُه وتهويله، ولا يعبأ بحرمات مرعيَّة، ولا بآداب شرعيَّة، وهذا كلُّه بسبب الغلوِّ في الاعتداد بالنَّفس الَّذي يُسدِل غشاوةً على قلب الإنسانِ وبصره، فيُحال بينه وبينَ سماع الحقِّ وقَبوله والإذعانِ إليه، وتسوء ظنونُه فتَضطرب أحكامُه، وتتناقض أقوالُه، ويبتَعد ممَّن كانَ منه قريبًا، ويقتربُ ممَّن كانَ عنه بعيدًا، ويشتدُّ في موطن اللِّين، ويلينُ في موطِن الشِّدَّة، لا همَّ له سوى الانتصار وتحقيق الغَلبة ولو في عالَم التَّوهُّم والافتراض.

ولو تأمَّل في حاله وصنيعه لألفاه جارًّا لألوانٍ منَ المفاسد والشُّرور عليه وعلى غيره، وقَد صدق ابنُ المبارك رحمه الله لمَّا عرَّف العُجب: «أنْ تَرى أنَّ عندَك شيئًا ليس عندَ غيْرك»، ثمَّ قال: «لا أعلمُ في المصلِّين شيئًا شرًّا منَ العُجْب» [«السير» (407/8)].

إنَّ العلم النَّافع يورث صاحبَه الالتفات إلى عيوب نفسه ونقائصها، حتَّى يتهاوى في عينه المنصب والجاه والمنزلة وجميع حظوظه النَّفسيَّة، ولا يشهد إلَّا فضلَ الله عليه ونعمتَه؛ فهذا شيخ الإسلام ابن تيميَّة رحمه الله الَّذي بلغ في العلم والعَمل مبلغًا عظيمًا، نقل تلميذه البار ابنُ القيِّم في «مدارج السَّالكين» (520/1) عنه أنَّه كانَ يقول كثيرًا: «ما لي شيءٌ، ولا منِّي شيءٌ، ولا فيَّ شيءٌ؛ وكانَ كثيرًا ما يتمثَّل بهذَا البيت:

أنا المُكَدِّي وابنُ المكَدِّي ... وهكَذَا كانَ أبي وجدِّي»

والمكدِّي هو الَّذي قلَّ خيره، والله الهادي.

في هذا العدد

الافتتاحية: الاعتداد بالنفس/ مدير المجلة 1

الطليعة: ولا يزالون يقاتلونكم/ التحرير 4

في رحاب القرآن: طريقة عملية لحفظ القرآن الكريم

/حمزة عواد............................... 6

من مشكاة السنة: الشام موئل الإيمان

/ توفيق عمروني......................... 10

التوحيد الخالص: تحذير العابد من اتخاذ القبور

مزارات ومشاهد

/د.كمال قالمي......................... 16

بحوث ودراسات: إيقاظ الوزع في تحريم القزع

/د.عبد المجيد جمعة.................... 19

مسائل منهجية: أسباب الانحراف عن المتابعة

/عز الدين مارير.......................... 24

سيرة وتاريخ: محبة أصحاب رسول الله ﷺ وموقف الإمام مالك من الرافضة الذين يسبونهم

/د.سعود الدعجان 28

تزكية وآداب: تحذير الإخوان من هجران القرآن

/ نجيب جلواح 32

فتاوى شرعية: أ. د. محمد علي فركوس 37

سير الأعلام: العلامة الشيخ عمر بن محمد فلاتة

/د.محمد عمر فلاتة 42

أخبار التراث: أسئلة متعلقة ببعض آيات القرآن

أجاب عنها العلامة المحدث محمد حياة السندي المدني

/علي الكندي المرر 46

اللغة والأدب: قطف الثمره من مثل العرجون والتمره

/محمد بوسلامة 51

قضايا تربوية: هدي النبي ﷺ في بيته

/ د.وسيلة حماموش 56

ألفاظ ومفاهيم في الميزان: الاستدلال بالنص الشرعي بين الاستبصار والاستنصار

/ أحمد معمر 60

الفوائد والنوادر: التحرير 62

بريد القراء: التحرير 64



العدد السابق



من مشكاة السنة

الشَّامُ موئلُ الإيمان



سير الأعلام

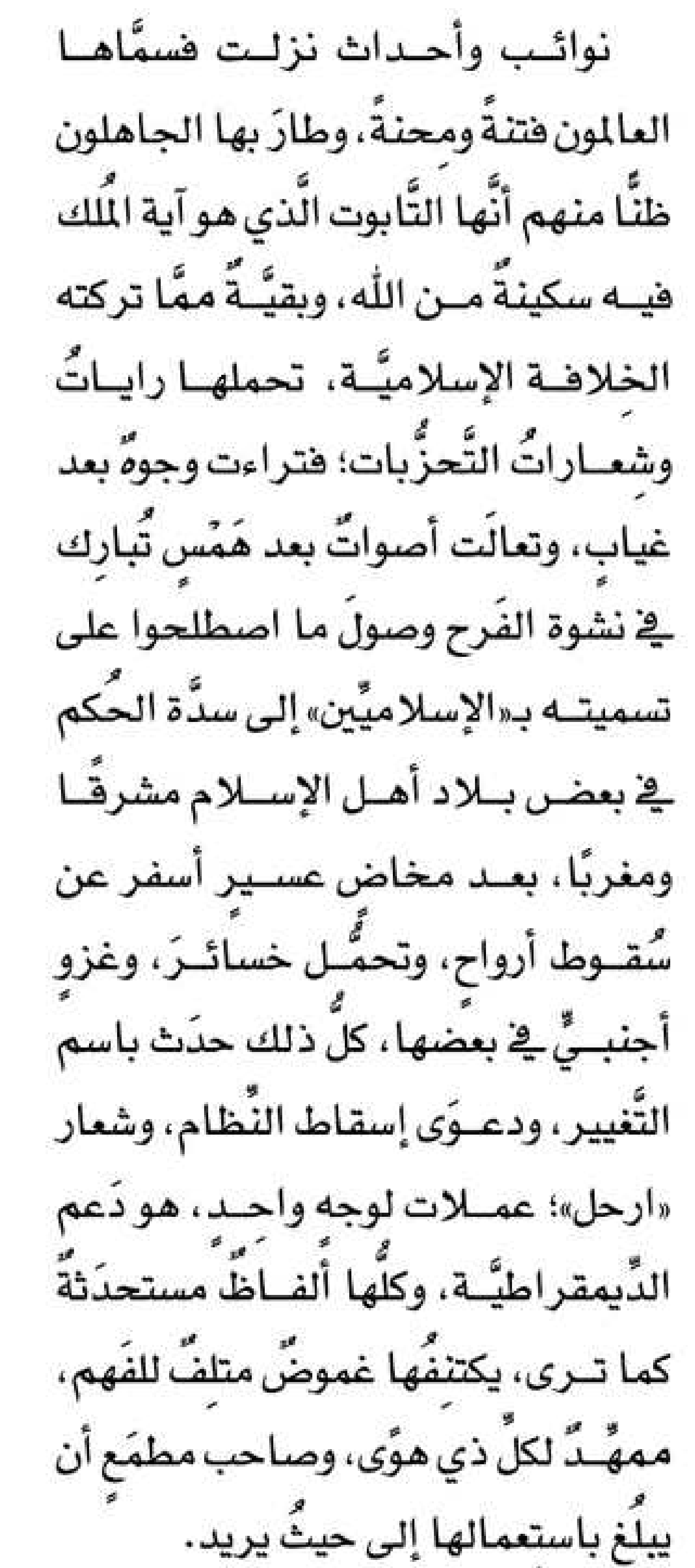
العلامة الشيخ:

عمر بن محمد فلاته رحمه الله

(ت 1419 هـ)

قواعد النشر في المجلة

- أن تكـون الموضوعات مطابقة لخطـة المجلة، وموافقة لمنهجها.
- أن يكون المقال متسمًا بالأصالة والاعتدال.
- أن يحـرَّر المقال بأسلوب يحقق الغرض، ولغة بعيدة عن التكلف والتعقيد.
- الدقة في التوثيق والتخريج مع الاختصار.
- أن تكـون الكتابة على الكمبيوتـر، أو بخطٍّ واضح مقروء؛ وعلى وجه واحد من الورقة.
- ألا يزيد المقال على خمس صفحات.
- أن يذكـر صاحـب المقال اسمـه الكامـل وعنوانه ورقم هاتفه، ودرجته العلمية إن وجدت.
- المقالات أو البحوث التي لا تنشر لا تردُّ لأصحابها.





ولا يزالون يقاتلونكم

التحرير

نوائب وأحداث نزلت فسمَّاها العالمون فتنةً ومحنةً، وطارَ بها الجاهلون ظنًّا منهم أنَّها التَّابوت الَّذي هو آية المُلك فيه سكينةٌ من الله، وبقيَّةٌ ممَّا تركته الخلافة الإسلاميَّة، تحملها راياتُ وشعاراتُ التَّحزُّبات؛ فتراءت وجوهٌ بعد غياب، وتعالَت أصواتٌ بعد هَمْسٍ تُبارك في نشوة الفَرح وصولَ ما اصطلحوا على تسميته بـ«الإسلاميِّين» إلى سدَّة الحُكم في بعض بلاد أهل الإسلام مشرقًا ومغربًا، بعد مخاض عسير أسفر عن سُقوط أرواح، وتحمُّل خسائرَ، وغزوٍ أجنبيٍّ في بعضها، كلُّ ذلك حدَث باسم التَّغيير، ودعوَى إسقاط النِّظام، وشعار «ارحل»؛ عملات لوجه واحد، هو دَعم الدِّيمقراطيَّة، وكلُّها ألفاظٌ مستحدَثةٌ كما ترى، يكتنفُها غموضٌ متلفٌ للفهم، ممهِّدٌ لكلِّ ذي هوًى، وصاحب مطمَعٍ أن يبلُغ باستعمالها إلى حيثُ يريد.

ولا يظُنَّن ظانٌّ أنَّ هذا من «النَّتاج المحلِّيِّ»، خاطَه أهلُ الإسلام بأنامل أبنائه، فأخطأ التَّقدير، وأساءَ التَّدبير، حتَّى يُعذَر في اجتهاده، ولكنَّ محرِّكَ هذا الصِّراع هو الغَازي المحتَلُّ بمَدارسه وفرائضه الَّتي فرضَها على مجتمعات أهل الإسلام بأسرها، ممثَّلةً في هيئة «الاستعمار» ووسائله الخفيَّة من الغزو الثَّقافيِّ، والإملاء السِّياسي، والضَّغط الاقتصادي، والتَّحريك الاجتماعي الَّتي تغَلغَل بها إلى غاياتٍ بعيدةٍ، مُغرِقةٍ في البعد، ممعنةٍ في الكيد.

والنَّاظر في حصيلة هذه التَّغيُّرات؛ لا يرَى في الآفاق تباشير الخير الموحي باستقرار الأوضاع، وبثٍّ الأمن، وزوال مظاهر الظُّلم والاستبداد والفساد، إلَّا أن يشاء الله، بدليل ما هو مُشاهَدٌ وظاهرٌ للعيان، سواءٌ عند من أنهى مشروعَ الثَّورة، واستَلم زِمام الحُكم، أو كادَ، أو لا يزالُ في رحمها يدفَع الثَّمن، ويتلقَّى الضَّربات، وتتوالَى عليه الهزائمُ والنَّكباتُ، أو من ينتظر شَرارةً من يُوقِد فيه نارَ الجحيم، ليرمي به إلى المصير المجهول.

وأمام هذا السَّراب الَّذي هو عند البعض «فجرٌ جديدٌ»، وبعد خمود نار الثَّورة يتداعَى الأكَلة إلى قصعَة الثَّروة، يلقُون أقلامَهم أيُّهم يكفُل البلد المشرَّد، وينفِّذ خبثاءُ صهيون مشروعَهم الإجرامي؛ من هَدم للمقدَّسات، وتهويد للمنطقة على نسَقٍ لم يُسبق له مثيلٌ، ويبقى من جملة الصِّراع أداةُ التَّحكُّم في الشُّعوب تجُوب أقطارَ بلاد العَرب والإسلام، وتدُوس كرامَة عقول أبنائه، وتغزُو معاقلَهم المهدَّدة بالسُّقوط، ممثَّلةً في «الإعلام»، وتسخيره وتوجيهه ليكون طَوع إرادة الغَازي الكافر.

إنَّ على كلِّ بني الإسلام أن يُدركوا أنَّ عدوَّهم واحدٌ، وهدفَه واحدٌ؛ يريدُ لهم الشَّرَّ، ولا يريدُ بهم الخير، ويسوؤه جدًّا أن تُبنى لهم دولةٌ، أو يستقرَّ لهم وضعٌ، أو أن يُصنَع لهم مجدٌ، أو تُحفَظ لهم وحدةٌ، فهم كما قال الله تعالى: ﴿مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَلَا ٱلْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [البقرة: 105].

وقال تعالى: ﴿لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّواْ مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ﴾ [آل عمران: 118].

وقال أيضًا: ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾ [البقرة: 120].

إنَّهم لا يحاولون غصبَ أراضينا، ولا استغلالَ خيراتنا، ولا التَّدخُّل في شؤوننا، بقَدر ما يُريدون أن يصلوا إلى سَلخنا من هُويَّتنا، وصرفنا عن ديننا الَّذي هو رمزُ عزِّنا، فلهذه الغاية يُقاتِلون، ولها يعدُّون الجيوشَ والتِّرسانات العسكريَّة، والمعدَّات النَّوويَّة، وعليها يتَّفقون وينسِّقون الجهود، ويديرون المؤتمَرات والنَّدوات، وينشئون التَّجمُّعات والأحلاف، وهم اليوم كما كانوا بالأمس؛ فالحروب الصَّليبيَّة الَّتي خاضُوها ضدَّ المسلمين منذُ مئات السِّنين كانت كما يقول غارندر: «إنَّ الحروب الصَّليبيَّة لم



طليعة العدد

تكُن لإنقاذ القُدس، إنَّمـا كانت لتدمير الإسلام»، وكان نشيدُهم في تلك الحروب: «أنا ذاهبٌ لسَحق الأمَّة الملعونة، لأحارب الدِّيانة الإسلاميَّـة، ولأمحُوَ القرآن بكلِّ قوَّتي».

وهـذا صموئيـل زويمـر (رئيـس جمعيَّـات التَّنصـير) في كتابـه «الغارة على العالم الإسلامي» يقول: «إنَّ للتَّبشير بالنِّسبة للحضارة الغربيَّة مزيَّتين: مزيَّة هَـدم، ومزيَّة بناء؛ أمَّـا الهَدم فنعني به انتـزاع المسلم من دينه، ولـو بدَفعه إلى الإلحاد، وأمَّـا البناء فنعنـي به تنصيرَ المسلـم إن أمكَـن، ليَقف مـع الحضارة الغربيَّة ضـدَّ قومـه»، وأطماعُهم ليست منصبَّةً على بلـدٍ، أو بعض البلدان، كما يظنُّ البعض، بل على كلِّ بلاد الإسلام.

قال روبرت ماكـس - أحد المنصِّرين مـن أمريـكا الشَّماليـة -: «لـن تتوقَّـف جهودُنـا وسعيُنـا في تنصـير المسلمين، حتَّـى يرتفـع الصَّليـب في سمـاء مكَّـة، ويُقام قدَّاس الأحد في المدينة».

إنَّ أمَّة الإسـلام اليوم تمرُّ بامتحانٍ صعـبٍ، وتواجه صراعًـا محتدمًا يحيط بها مـن كلِّ دربٍ، والأمَّة تُختَبر وتُمتَحن في الشَّدائـد والإحَن، والرِّجال إنَّما تبرُز في الحَوالِـك والمِحَـن، وابتِنـاء المناقـب باحتمال المتاعب، وإحراز الذِّكر الجميل بالسَّعـي في الخطب الجليـل، ومَن طلب عظيمًا خاطَر بعظيمته.

إنَّ الصِّـراع اليوم يشتـدُّ بين الكُفر والإيمـان، وبـين الحـقِّ والباطـل، وإنَّ أوليـاء الشَّيطـان يتربَّصـون الدَّوائـر بأوليـاء الرَّحمـن؛ يهيِّئـون الفرص، ويعيِّنُون الفرائس، ويُحكِمون التَّصويب، ويجيدون الاقتناص لينقَضُّوا عليها عند أوَّل ضربـة تصيـب منهـم المَقتَل، ﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُوا۟﴾ [البقرة :217].

ولا يمكـن مواجهـةُ هـذه الغـارات، وردُّ كيـد هـذه الهجَمـات إلاَّ إذا اجتمع الشَّمـلُ، ورُصَّ الصَّفُّ، وصفـا الذِّهنُ علـى أصالة منهج سديـد، ونضارة رأيٍ رشيـد، مَعينُه الكتـاب والسُّنَّة، والحَنين إلى المجـد التَّليـد، والاهتمـام بدعـوة التَّوحيـد، ومعرفة حـقِّ الله على العبيد، كمـا يستَحيل تحصـينُ الأجيـال بآداب الإسـلام وتشريعـه إذا قعَسَـت الهممُ، وفـتَرت العزائمُ عـن مدِّ المشاريـع الَّتي تخدم ميادينَ الدَّعوة إلى الله بالمعُونات الأدبيَّـة والمادِّيَّـة؛ كتجنيـد الكفـاءات النَّزيهـة، واختيـار الرِّجـال الأكفـاء، يُوجهـون إلى مسالـك قويمـة، ويعتَلُّـون مناصب شريفـةً، محكومةً بإطـارٍ متين من العفَّـة والصِّدق، والعَـدل والرَّحمة، وإنفـاقِ الأمـوال الكريمـة المـبرَّأة عـن السُّحت والحَرام، وبذلِ الأوقات العزيزة تكـون في مستـوى التَّحـدِّي والتَّصـدِّي لحمَلات الكفَّـار العدائيَّـة المصوَّبة إلى ديـار المسلمـين، والَّتـي ينفقـون لأجلها الأمـوال الطَّائلة، ويسخِّـرون لها الموارد البشريَّـة الهائلة، وقـد قال الله فيهم: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [الأنفال :36] ولكنَّها أموالٌ تعود عليهم بالخُسران، وتبوِّئهم مقاعدَ الهَـوان: ﴿فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ ۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [سورة الأنفال].

ومَربط الفَرس في كلِّ هذا أن يسعى كلُّ مـن يريـد بالأمَّة خـيرًا، وليبني لها عـزًّا وفخـرًا إلى «اتِّخاذ سَمـت نابعٍ من القرآن والسُّنَّـة، تكون به حضارةُ الكتاب والسُّنَّة ممثَّلةً في رجال يَغدُون بين النَّاس ويرُوحون، ويغضَبون ويرضَون، ويتنازَعُون ويصطَلِحـون، ويعيشُـون عيشـةً كاملـةً، ممثِّلةً لخلاصـة الرِّحلة الطَّويلة العميقة في استنبـاط طريـقٍ للحيـاة الإنسانيَّـة الصَّحيحة، من الفطـرة الَّتي جعلها الله كامنـةً في الطَّبيعة البشريَّـة، ومطويَّةً في هـذا التَّنزيل المعجز الَّـذي جاء من عند الله وهـو «القرآن»، وفي جوامع الكَلم الَّتي أوتيَها نبيُّ الله ﷺ مبينًا عن كتاب الله، ومفصِّلاً لجُمله وهو «الحديث»»[1].

وهـذه هـي القـوَّة الَّتـي اشتملـت عليهـا دعـوةُ السَّلفيِّـين؛ لأنَّهـا صادرةٌ مـن مَعينهم، وهي الَّتي كانـت مصدَرًا لمخـاوف الاستعمار قديمًـا وحديثًا، لذا فهـو يسعَـى بـكلِّ مـا أوتـي إلى تشويهِ مضمونهـا، وتبغيضهـا إلى العامَّـة، وتصويرهـا في صـورٍ منكـرةٍ تكرَهُهـا النُّفوس، وتمجُّها الطِّباع.

فليكُـن أهلُ الإسـلام على حذَرٍ ممَّا يدبَّـر لهم، ويرادُ بهـم؛ فحمَلاتُ الكفَّار المسعُـورة نحوَهم لن تتوقَّـف، ولا يمكن منعُهـا، ولايمكن إفشـال مفعُولها إلا إذا قُوبلت بإعداد عُدَّة إيمانيَّة وماديَّة.

فاللَّهم! إنَّا نسألك لطفَك ورحمتَك، وأن تهيِّـئَ لنـا مـن أمرنا رشَـدًا، وأن لا يتسَلَّط علينا مَن لا يخافُك، ولا يرحَمُنا، إنَّك نعم المولى، ونعم النَّصير.

(1) من كلام العلامة محمود شاكر رحمه الله في كتابه «أباطيل وأسمار».



طريقة عملية لحفظ القرآن الكريم

حمزة عواد . البيض
طالب في مرحلة دكتوراه في القراءات

لقد كان السَّلف أحرص شيء على العلم، وأحرصهم على القرآن العظيم تعلُّمًا وتعليمًا، إذ هو كتاب الله، وأصل الأصول، وما حفظ شيءٌ من العلوم إلاَّ بحفظه، قال تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝٩ ﴾ [سُورَةُ الحِجْر].

قال الإمام ابن عبد البرِّ رَحِمَهُ اللهُ:

«فأوَّل العلم حفظ كتاب الله عزَّ وجلَّ وتفهُّمُه، وكلُّ ما يعين على فهمه فواجب طلبُه معه، ولا أقول إنَّ حفظه كلَّه فرض، ولكنِّي أقول إنَّ ذلك شرط لازمٌ على من أحبَّ أن يكون عالـمًا فقيهًا ناصبًا نفسه للعلم، ليس من باب الفرض»[1].

◇◇◇

وقد رأينا بحمد الله تعالى في هذا الزَّمن إقبالاً من النَّاس على حفظ كتاب الله تعالى، ولطالما سألوا عن كيفيَّة ذلك، استفادةً من تجارب السَّابقين في المضمار، وتوفيرًا منهم على أنفسهم الجهد، واختصارًا للوقت، وتنزُّهًا عن اختراع الطُّرق الَّتي قد لا يحالفها حظُّ النَّجاح، وسعيًا للفائدة رأيت أن أكتب شيئًا في الموضوع ، لعلَّ الله تعالى ينفع به إخواننا الَّذين يبتغون شغل أنفسهم بالعلم والحفظ، فيحصل لنا به الأجر عند الله تعالى.

ومن غير إطالة أشرع في المقصود:

الإخلاص:

فلابدَّ أن يصاحب حفظ القرآن الإخلاص لله عزَّ وجلَّ، ودعاء واستعانة به سبحانه وتعالى، فالحفظ عبادةٌ وقد أمرنا بالاستعانة على العبادة، قال تعالى ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥ ﴾ [سُورَةُ الفَاتِحَة]، وفَمن أن يوفَّق المخلص في أموره كلِّها ومنها حفظ كتاب الله تعالى.

شحذُ الهمَّة:

ويكون ذلك بمعرفة فضل قراءة القرآن وحفظه وقراءته، ومطالعة سير العلماء والحافظين، ومحاولة التَّشبُّه بهم في طلبهم للعلم، وتفرُّغهم له، وإعطائهم له كلَّ الوقت أو أكثره، وصبرهم على نيله، وغيرها من المحفِّزات على الحفظ الَّتي ليست موضوعنا، والَّتي ينبغي معرفتها والتزامها حتَّى يتحقَّق المراد.

(1) «جامع البيان» (1129/2).

التَّقليل من المحفوظ:

ليكون أنفعَ وأضبطَ وأفيَدَ للحافظ، فقد كان هذا ديدنَ السَّلف وعهدَهم.

قال أبو بكر بن عيَّاش رحمه الله:

«قرأت القرآن على عاصم بن أبي النَّجود فكان يأمرني أن أقرأ عليه في كلِّ يوم آية، لا أزيد عليها، ويقول: إنَّ هذا أثبتُ لك، فلم آمن أن يموت الشَّيخ قبل أن أفرغ من القرآن، فما زلت أطلب إليه حتَّى أذن لي في خمس آيات كلَّ يوم»[2].

وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال:

«كان الرَّجل منَّا إذا تعلَّم عشر آيات لم يجاوزْهُنَّ حتَّى يعرف معانيهنَّ والعمل بهنَّ»[3].

وقال أبو عبد الرَّحمن السُّلمي رحمه الله:

«حدَّثنا من كان يقرئنا من أصحاب النَّبيِّ ﷺ أنَّهم كانوا يقترئون من رسول الله ﷺ عشر آيات، فلا يأخذون في العشر الأخرى حتى يعلموا ما في ما في هذه من العلم والعمل، فعلمنا العلم والعمل»[4].

وأكثر ما ننصح به الطَّالب الذَّكي النَّبيه الفطن، القويَّ الحفظ، الحادَّ الذِّهن أن لا يتجاوز رُبُع حزب من القرآن الكريم في اليوم، وإلاَّ تعرَّض للنِّسيان.

اختيار وقت الحفظ ومكانه:

قال ابن الجوزي رحمه الله:

«ينبغي لمن يريد الحفظ أن يتشاغل به في وقت جمع الهمِّ، ومتى رأى نفسه مشغول القلب ترك التَّحفُّظ، ويحفظ قدر ما يمكن فإنَّ القليل يثبت والكثير لا يحصل، وقد مُدح الحفظ في السَّحر لموضع جمع الهمِّ، وفي البُكَر، وعند نصف اللَّيل، ولا ينبغي أن يحفظ على شاطئ نهر، ولا بحضرة خُضْر، لئلاَّ يشتغل القلب؛ والأناظر العالية أحمد من السَّافلة، وينبغي أن يريح نفسه من الحفظ يومًا أو يومين ليكون ذلك كالبناء الَّذي يراح ليستقرَّ»[5].

الشُّروع في الحفظ، وليس هو كلَّ شيء

ويكون ذلك بالطَّريق الآتي:

■ أن يتلقَّن الآيات المراد حفظها فيقرأها على شيخ، قال ابن كثير رحمه الله:

«فأما تلقين القرآن فمن فم الملقِّن أحسن، لأنَّ الكتابة لا تدلُّ على الأداء، كما أنَّ المشاهد من كثير ممَّن يحفظ من الكتابة فقط يَكْثُرُ تَصْحِيفُهُ وَغَلَطُهُ، وإذا أدَّى الحال إلى هذا منع منه إذا وجد شيخًا يوقفه على ألفاظ القرآن»[6].

وفي عصرنا والحمد لله تنوَّعت الآلات المعينة على الطَّلب، فإن لم يتوفَّر للمرء الشَّيخ استعان ببعضها، كأن يأخذ شريطًا لبعض القرَّاء المتقنين فيسمع جزءه المراد حفظه منه، ويكرِّرُ ذلك السَّماع مرارًا ليتبيَّن له، وحبَّذا لو يقرأ معه من المصحف، لأنَّنا في هذه الحالة قد نضمن عدم الخطإ إن شاء الله تعالى.

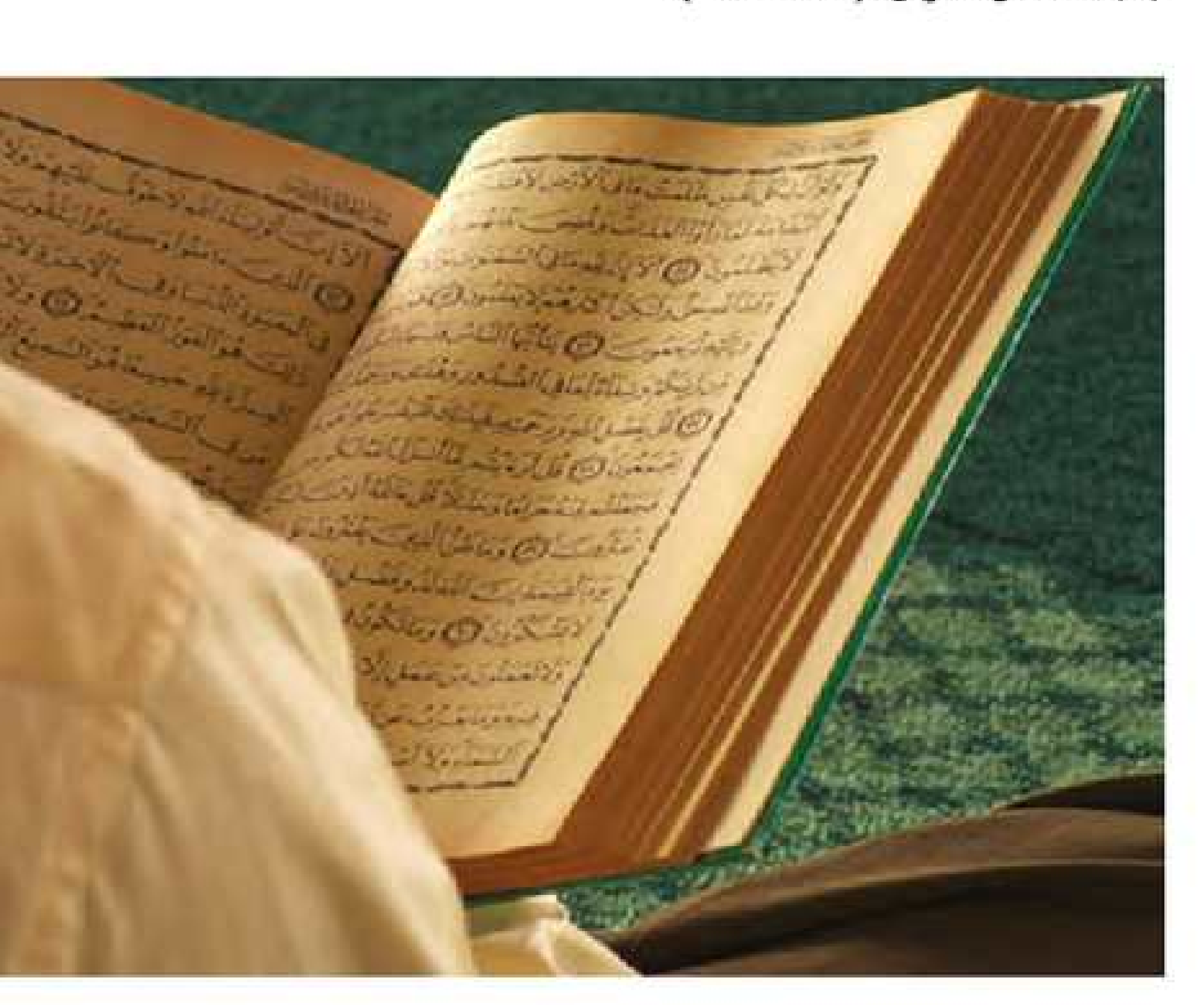
أمَّا إن عجز عن ذا وذاك؛ فليحفظ القرآن على أيِّ هيئة تيَّسرت له فإنَّ له فيه أجرًا، قال عليه الصَّلاة والسَّلام: **«وَالَّذي يَقرَأُ القُرآنَ ويتعتع فيه وَهُوَ عَلَيْه شَاقٌ لَهُ أَجْرَان»**[7].

قال ابن كثير رحمه الله: «فأمَّا عند العجز عمَّا يلقَّن فلا يكلِّف الله نفسًا إلاَّ وسعها، فيجوز عند الضَّرورة ما لا يجوز عند الرَّفاهية فإذا قرأ في المصحف ـ والحالة هذه ـ فلا حرج عليه؛ ولو فُرض أنَّه قد يحرِّف بعض الكلمات عن لفظها على لغته ولفظه»[8].

فالمهمُّ أن يواصل في الخير وقد يقيِّض الله تعالى له من يهديه إلى الصَّواب، ولو بعد حين.

■ أن يشرع في الحفظ: فيحفظ الآية الأولى أو جزءًا منها إن كانت طويلة، ويكرِّرها عددًا يستطيع أن يقرأها بعده من ذاكرته، فإذا علقت بذاكرته، قرأها عددًا كثيرًا دون نظر إلى المكتوب، كلُّ ذلك ترسيخًا لها وتثبيتًا كأن يقرأها خمسين أو مائة أو أكثر إن كانت له همَّة، ثمَّ ينتقل إلى الآية بعدها، ويفعل معها ما فعل بالأولى، ثمَّ يجمع بينهما ويقرؤهما معًا عددًا كبيرًا يستطيع بذلك ترسيخهما مع بعض وتثبيتهما؛ ثمَّ ينتقل إلى الثَّالثة فيفعل معها ما فعل مع صاحبتيها، ثمَّ يضمُّها إليهما كذلك، وهكذا حتَّى يفرغ من محفوظه جميعه.

(2) «طبقات الحنابلة» (1/ 42).
(3) «تفسير ابن كثير» (1/ 7).
(4) «المسند» للإمام أحمد (23482).
(5) «الحثُّ على حفظ العلم» (45).
(6) «فضائل القرآن» (211).
(7) «مسلم» (798).
(8) «فضائل القرآن» (211 ـ 212).



المراجعة:

وهذه أهمُّ المهمَّات فلا حفظ دون تكرار ومراجعة، ومن استنزف جهده في الحفظ ثمَّ أهمله وعرَّضه للنِّسيان، فقد حرم نفسه، وليس الصَّبر على الحفظ بأشدَّ منه على المراجعة، ومن يتصبَّر يصبِّره الله.

عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال ﷺ: «**تَعَاهَدُوا هذه المصاحف. أو ربما قال القُرآنَ. فَإِنَّهُ أَشَدُّ تَفَصِّيًا مِنَ صُدُورِ الرِّجَالِ مِنَ النَّعَم من عُقله**»[9].

وعن ابن عمر رضي الله عنهما أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**إِنَّمَا مَثَلُ صَاحِبِ القُرآنِ كمثل صَاحِبِ الإِبِلِ المُعَقَّلة، إن عَاهَدَ عَلَيْهَا أَمْسَكَهَا وَإِن أَطْلَقَهَا ذَهَبَت**»[10].

قال ابن الجوزي رحمه الله:

«كان أبو إسحاق الشِّيرازي يعيد الدَّرس مائة مرَّة، وكان إلكيا يعيد سبعين مرَّة، وقال لنا الحسن بن أبي بكر النَّيسابوري الفقيه: لا يحصل الحفظ حتَّى يعاد خمسين مرَّة، وحكى لنا الحسن: أنَّ فقيهًا أعاد الدَّرس في بيته مرارًا كثيرة فقالت له عجوز في بيته: قد والله حفظته أنا، فقال: أعيديه، فأعادته، فلمَّا كان بعد أيَّام قال: يا عجوز، أعيدي ذلك الدَّرس، فقالت: ما أحفظه، قال: إنِّي أكرِّر عدَّ الحفظ لئلاَّ يصيبني ما أصابك»[11].

(9) رواه مسلم (790).
(10) رواه البخاري (5031) ومسلم (789).
(11) «الحثُّ على حفظ العلم» (43).

وطريقة المراجعة ـ كما أقترحها ـ: أن يفرغ الإنسان يومًا في الأسبوع أو يومين وهو أفضل، لا يحفظ فيهما شيئًا، وليشتغل بمراجعة ما حفظ، فإن كان حفظ حزبًا في الأسبوع الأوَّل مثلاً، قرأ ذلك الحزب كاملاً عدَّة مرَّات، وإن استطاع أن يجعلها ألفًا فليفعل فإنَّ ذلك كلَّه في صالحه، ويوم يضعف يرى جليًّا نتيجة ذلك التَّكرار الَّذي ملَّه في زهرة أيَّامه، وفي الأسبوع الثَّاني يراجع حزب الأسبوع الثَّاني ويضمُّ إليه حزب الأسبوع الأوَّل، وهكذا حتَّى يتمَّ الشَّهر فيخصِّص يومًا لمراجعة حفظ الشَّهر كلِّه، أو عند نهاية السُّورة يخصِّص لها يومًا أو يومين لضبطها وتثبيتها بطريقة لا يعود بعدها إليها.

> **وطريقة المراجعة كما أقترحها: أن يفرغ الإنسان يومًا في الأسبوع أو يومين وهو أفضل، لا يحفظ فيهما شيئًا**

ثمَّ إنِّي أقول:

على الإنسان أن لا يفتر من قراءة القرآن في جميع أحواله، قائمًا أو قاعدًا أو على جنب، وليشغل نفسه به، وبمراجعة محفوظه اليومي فإنَّ ذلك أدعى للرُّسوخ والتَّثبيت في ذهنه.

ومن أهمِّ ما يعين على ترسيخ الحفظ صلاة اللَّيل فمن جرَّبها علم فضلها في ذلك، ولا يزال مشايخنا يحثُّوننا على صلاة اللَّيل وقراءة الورد فيها لأجل تثبيت القرآن، وقد قال ﷺ: «**إِذَا قَامَ صَاحِبُ القُرآنِ فَقَرَأَهُ بِاللَّيلِ وَالنَّهَارِ ذَكَرَهُ، وَإِذَا لَمْ يَقُمْ بِهِ نَسِيَهُ**»[12].

ومن أفضل ما يعين على تثبيت القرآن أيضًا: تعليمه للنَّاس، فإنَّ ذلك يشغل الحافظ بكتاب الله دائمًا، ممَّا لا يدع مجالاً إلى هجرانه، مع ما فيه من الخيريَّة الَّتي وعد الله بها، ورسوله ﷺ في قوله: «**خَيْرُكُمْ مَن تَعَلَّمَ القُرآنَ وَعَلَّمَهُ**»[13].

تفهُّم المحفوظ:

لا شكَّ أنَّ حفظ الكلام عريًّا عن الفهم أشدُّ على القلب، فعامَّة النَّاس إنَّما يحفظون بقلوبهم ما وعته عقولهم، من أجل ذلك فعلى المهتمِّ بحفظ كتاب الله التزام القراءة في تفسير مختصر كتفسير السِّعدي مثلاً، ويحسن أن يضيف إليه بعض الأمور المتعلِّقة به كـ«الصَّحيح المسند من أسباب النُّزول» للوادعي، وغيرها.

وبهذا يحصل للمرء حفظ القرآن مع تحصيل العلم سواء، وهو ما يسمَّى بالرواية والدِّراية.

قال أبو عبد الرَّحمن السُّلمي رحمه الله:

«حدَّثنا من كان يقرئنا من أصحاب النَّبيِّ ﷺ أنَّهم كانوا يقترئون من رسول الله ﷺ عشر آيات، فلا يأخذون في العشر

(12) رواه مسلم (789).
(13) رواه البخاري (5027).

الأخرى حتى يعلموا ما في ما في هذه من العلم والعمل، فعلمنا العلم والعمل»[14].

فإنَّ الله أنزل القرآن ليعمل به، والمعاصي من أسباب تفلُّت القرآن ونسيانه، وما ذهب عن امرئ محفوظه أيًّا كان إلاَّ بالذَّنب يحدثه

الاستقامة والطَّاعة والعمل بمقتضى القرآن الكريم:

فإنَّ الله أنزل القرآن ليعمل به، والمعاصي من أسباب تفلُّت القرآن ونسيانه، وما ذهب عن امرئ محفوظه أيًّا كان إلاَّ بالذَّنب يحدثُه، عن الضَّحَّاك ابن مزاحم رحمه الله قال: «ما من أحد تعلَّم القرآن ثمَّ نسيه إلاَّ بذنب يحدثه؛ لأنَّ الله عز وجل يقول: ﴿ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ ﴾ [الشورى : 30] وإنَّ نسيان القرآن من أعظم المصائب»[15].

قال ابن كثير رحمه الله:

«وقد أدخل بعض المفسِّرين هذا المعنى في قوله تعالى: ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾ ﴾ [سورة طه] وهذا الَّذي قاله هذا وإن لم يكن هو المراد جميعه، فهو بعضه فإنَّ الإعراض عن تلاوة القرآن وتعريضه للنِّسيان وعدم الاعتناء به فيه تهاون كبير وتفريط شديد، نعوذ بالله منه»[16].

ثمَّ إنَّ الحافظ مهما علا كعبه في الحفظ والعلم فلا بد أن يسهو أو يحصل له السقط ليبقى الكمال لله وحده.

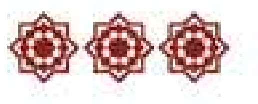
عن عائشة رضي الله عنها قالت: سمع رسول الله ﷺ رجلاً يقرأ في سورة بالليل، فقال: «**يَرْحَمُهُ الله لَقَدْ أَذْكَرَنِي كَذَا وَكَذَا، آيَةً كُنتُ أُنسِيتُهَا مِنْ سُورَةِ كَذَا وَكَذَا**»[17].

فإن فاته شيء من محفوظه فقد علَّمنا رسول الله ﷺ الأدب في الخطاب فقال ﷺ كما في حديث ابن مسعود: «**بِئسَ مَا لأَحَدهم يَقُولَ نَسِيتُ آيَةَ كِيتَ وَكِيتَ، بَلْ هُوَ نُسِّيَ**»[18].

قال ابن كثير رحمه الله:

«وفي هذا الحديث والَّذي قبله دليل على أنَّ حصول النِّسيان للشَّخص ليس بنقص له، إذا كان بعد الاجتهاد والحرص»[19].

هذا والله أعلم، وبالله التوفيق.





(14) «المسند» للإمام أحمد (23482).
(15) «فضائل القرآن» لأبي عبيد (104).
(16) «فضائل القرآن» لابن كثير (221).
(17) رواه البخاري (5038)، ومسلم (788).
(18) أخرجه البخاري (2032)، ومسلم (790).
(19) «فضائل القرآن» لابن كثير (229).

من مشكاة السنة



توفيق عمروني

الشَّامُ موئلُ الإيمان

إنَّ الله سبحانه وتعالى يخلق ما يشاء، ويختار من خلقه ما شاء، فاختار من الملائكة جبريل وميكال، واختار من الآدميِّين أنبياءه عليهم السَّلام، ومن أنبيائه أولي العزم منهم، ومن أولي العزم نبيَّنا ﷺ، واختار من الأشهر شهر رمضان، ومن الأيَّام يوم الجمعة، واختار من الأمكنة بلاد الحرمين وبلاد الشَّام. وممَّا جاء في فضل الشَّام:

عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ:

«إنِّي رَأَيْتُ كَأَنَّ عَمُودَ الكتَابِ انْتُزِعَ منْ تَحت وسَادَتي، فَأَتْبَعْتُهُ بَصَرِي فَإذَا هُوَ نُورٌ سَاطِعٌ عُمِدَ به إلى الشَّام، أَلا وَإنَّ الإيمَانَ إِذَا وَقَعَت الفِتَنُ بالشَّام».

أخرجه يعقوب بن سفيان في «المعرفة والتَّاريخ» (2/300، 523)، والطَّبراني في «الكبير» (13/637)، وفي «مسند الشَّاميِّين» (309، 310، 2196، 2197)، وأبو نعيم في «الحلية» (5/252)، والحاكم في «المستدرك» (4/555) من طريق سَعيد بن عبد العزيز، عن يونُس بن مَيْسَرة بن حَلْبَس، عن عبد الله بن عَمرو به.

وقال الحاكم: «صحيح على شرط الشَّيخين»؛ ووافقه الذَّهبي.

وقد تعقَّبهما الألباني ـ في كتابه «تخريج أحاديث فضائل الشام ودمشق» للربعي (ص12) في قولهما: على شرط الشَّيخين؛ فإنَّ ابنَ حلبس لم يخرج له الشَّيخان شيئًا وهو ثقة.

وقال أبو نعيم: «غريب من حديث ابن حلبس لم نكتبه إلَّا من هذا الوجه».

قلتُ: تابع ابن حلبس جماعة:

. عبد الله بن قيس عند تمام في «فوائده» (1278)، وأبي الحسن الربعي في «فضائل الشَّام» (11).

وعبد الله بن قيس، ويقال ابن أبي قيس النَّصري الشَّامي، وهو ثقة من رجال مسلم.

. عطيَّة بن قيس عند أبي العبَّاس الأصم في «حديثه» (51)، ومن طريقه السَّمعاني في «فضائل الشَّام» (15).

. أبو قلابة الجرمي عند الطَّبراني في «الكبير» (13/598)، وفي «الأوسط» (2689) بلفظ: «رَأَيْتُ في المَنَام أَنَّهُمْ أَخَذُوا عَمُودَ الكِتَابِ فَعَمَدُوا بِهِ إلى الشَّام، فَإِذَا وَقَعَتِ الفِتْنَةُ فَالأَمْنُ بِالشَّام».

قال الحافظ في «الفتح» (12/402): «وله طريقٌ عند عبد الرَّزَّاق رجالُه رجال الصَّحيح إلاَّ أنَّ فيه انقطاعًا بينَ أبي قلابة وعبد الله بن عَمْرو».

. أبو إدريس الخولاني عند الطَّبراني في «الكبير» (13/623).

ذكره الهيثمي في «مجمع الزَّوائد» (10/58)، وقال: «رواه الطَّبراني في «الكبير» و«الأوسط» بأسانيد، وفي أحدها ابنُ لهيعة؛ وهو حسَن الحديث، وقد تُوبع على هذا، وبقيَّة رجاله رجالُ الصَّحيح».

قلت: لكن غيره رواه عن أبي إدريس الخولاني عن أبي الدَّرداء.

. مُدْرِك بن عبد الله الأَزْدي عنه بلفظ: «إنَّ الإيمَانَ إِذَا وقَعَت الفتَنُ بالشَّام؛ ثلاثًا» عند يعقوب بن سفيان في «المعرفة والتَّاريخ» (2/290 ـ 291، 523)، والطَّبراني في «الكبير» (13/639، 650).



■■■

وورد عن والده عَمْرو بن العاص رضي الله عنه قال: سمعتُ رسُولَ الله ﷺ يَقُولُ:

«بَيْنَا أَنَا فِي مَنَامِي، أَتَتْنِي الملائكةُ فَحَمَلَتْ عَمُودَ الكتابِ مِنْ تَحْت وِسَادَتي، فَعَمَدَتْ به إلى الشَّام، أَلا فَالإيمَانُ حَيْثُ تَقَعُ الفِتَنُ بِالشَّامِ».

■■■

أخرجه أحمد (17775)، والطَّبراني في «مسند الشَّاميِّين» (1357) من طريق عبد العزيز بن عبيد الله، عن عبد الله بن الحارث، قال: سمعت عمرو ابن العاص فذكره.

قال الهيثمي في «المجمع» (57/10): «رواه أحمد، وفيه عبد العزيز بن عبيد الله، وهو ضَعيف».

■■■

وجاء عن عُمَر بن الخطَّاب رضي الله عنه مرفوعًا: «رَأَيْتُ عَمُودًا مِنْ نور خَرَجَ مِنْ تَحْتِ وِسَادَتي حَتَّى اسْتَقَرَّ بِالشَّامِ».

■■■

أخرجه يعقوب بن سفيان في «المعرفة والتَّاريخ» (311/2)، والطَّبراني في «مسند الشَّاميِّين» (1566)، وابن عساكر في «تاريخ دمشق» (109/1) من طريق نَصر بن محمَّد بن سُليمان، ثنا أبي، ثنا عبد الله بن قَيس، سمعتُ عُمَر به.

هذا إسناد ضعيف، فيه نصر ابن محمَّد ضعَّفه أبو حاتم؛ وأبوه وإن وثِّق فإنَّه لا يتحمَّل مخالفة الثِّقات الَّذين رووا الحديثَ عن عبد الله بن قَيس، وجعلوه من مُسند عبد الله بن عَمْرو رضي الله عنه لا من مسند عُمَر بن الخطَّاب رضي الله عنه، ولم يتابَعْ على ذلك.

■■■

وورد من حديث أبي أمامة رضي الله عنه عن النَّبيِّ ﷺ:

«رَأَيْتُ عَمُودَ الكتاب انْتُزِعَ مِنْ تَحْت وِسَادَتي، فَأَتْبَعْتُهُ بَصَري، فَإِذَا هُوَ نُورٌ سَاطِعٌ حَتَّى ظَنَنْتُ أَنَّهُ قَدْ هوي به، فَعُمِدَ به إلى الشَّام، وإنِّي أَوَّلْتُ أَنَّ الفِتَنَ إذَا وَقَعَتْ أَنَّ الإيمَانَ بِالشَّام».

■■■

أخرجه الطَّبراني في «الكبير» (170/8) من طريق الوليد بن مُسلم، عن عُفير بن مَعْدان، أنَّه سمع سليم ابن عامر يحدِّث عن أبي أمامَة به.

قال الهيثمي في «المجمع» (58/10): «رواه الطَّبراني، وفيه عُفَير بن معْدَان، وهو مجمَعٌ على ضعفه».

قال ابن أبي حاتم في «الجرح والتَّعديل» (36/7): «سألتُ أبي عن عُفَير بن معدان؛ فقال: هو ضعيف الحديث، يكثر الرِّواية عن سُلَيم بن عامر عن أبي أمامة، عن النَّبيِّ ﷺ بالمناكير ما لا أصلَ له، لا يُشتَغَل بروايته»، ولهذا قال الحافظ في «الفتح» (403/12): «إسناده ضعيف».

■■■

وورد من حديث أبي الدَّرداء رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«بَيْنَا أَنَا نَائمٌ، إذْ رَأَيْتُ عَمُودَ الكتَاب احْتُمِلَ مِنْ تَحْت رَأسي، فَظَنَنْتُ أَنَّهُ مَذْهُوبٌ به، فَأَتْبَعْتُهُ بَصَري فَعُمِدَ به إلى الشَّام، أَلا وَإنَّ الإيمَانَ حينَ تَقَعُ الفِتَنُ بِالشَّام».

■■■

أخرجه أحمد (12733)، وفي «فضائل الصَّحابة» (1717)، ويعقوب ابن سُفيان في «المعرفة والتَّاريخ» (290/2)، والبزَّار في «مسنده» (4111)، وأبو نعيم في «الحلية» (98/6)، والطَّبراني في «مسند الشَّاميِّين» (449)، والسَّمعاني في «فضائل الشَّام» (12) من طريق بُسْر ابن عُبَيد الله قال: حدَّثني أبو إدريس الخولاني، عن أبي الدَّرداء به.

قال البزَّار: وهذا الحديث لا نعلمه يروى عن رسول الله ﷺ إلاَّ من أحاديث أهل الشَّام؛ رواه عبد الله بن بسر، وأبو الدَّرداء ووحشيُّ بن حَرب، ولا نعلمُ له إسنادًا أحسَنَ من هذا الإسناد، عن أبي الدَّرداء، وقَد روي عن أبي الدَّرداء من غير هذَا الوجه وهذا أحسَنُ إسنادًا يُروى أيضًا، عن أبي الدَّرداء.

قال الهيثمي في «المجمع» (289/7): «رواه البزَّار، ورجاله رجال الصَّحيح، غير محمَّد بن عامر الأنطاكي، وهو ثقة».

وقال في موطن آخر: (58/10): «رواه أحمد والطَّبراني، ورجال أحمد رجال الصَّحيح».

قلتُ: وصحَّح إسناده الحافظ في «الفتح» (403/12)؛ والاختلاف الواقع على يحيى بن حمزة في شيخه هل هُو ثَور بن يزيد أو زَيد بن واقِد غير قادح؛ لأنَّ كلاًّ منهُما ثقةٌ على شرط البخاري؛ لكنَّه قد يكون السَّبب في تردُّد البخاري عن تخريجه في «صحيحه» أو «لعلَّه كتَبَ التَّرجمةَ وبيَّضَ للحَديث لينظُر فيه فلَمْ يتَهيَّأ له أن يكتُبَه» . كما قال الحافظ ؒ؛ لأنَّه أورد ترجمةً في كتاب التَّعبير بعنوان: باب عمود الفُسطاط تحتَ وسادته ولم يسُق تحتَه شيئًا.

■■■

وورد أيضًا من حديث عُبَيد الله ابن عمر ﭬ ؛ أخرجه ابن أبي عاصم في «الآحاد والمثاني» (753، 754)، وأبو الحسن الربعي في «فضائل الشَّام» (22)، وابن عساكر في «تاريخه» (110/1) من طريق أبي قِلابة، عن بشير، عن ابن عُمَر، قال لنا رسولُ الله ﷺ ذات يوم:

«إنِّي رَأَيْتُ الملائِكَةَ عَلَيْهِمُ السَّلاَمُ فِي المَنَام أَخَذُوا عَمُودَ الكِتَاب فَعَمَدُوا بِه إلَى الشَّام، فَإِذَا وَقَعَتِ الفِتَنُ فَإِنَّ الإِيمَانَ بِالشَّام».

■■■

وبشير هو ابن كعب وهو ثقة؛ ورواه ابن عساكر من وجه آخر عن أيُّوب عن أبي قلابة عن عبيد الله بن عُمَر من غير ذكر بشير؛ ورواه أيضًا من وجه آخر عن أيوب عن بشير عن عبيد الله بن عمر وأسقط منه أبا قلابة.

وقد وقع في «تاريخ دمشق» المطبوع، وفي «فضائل الشَّام» للربعي عبد الله ابن عمر، والأمر يحتاج إلى مزيد بحث.

■■■

وعن عبد الله بن حَوَالة الأزدي ﭬ أيضا وفيه قال ﷺ:

«ورأيتُ ليلةَ أُسْريَ بي عَمُودًا أبيضَ كأنَّه لُؤْلُؤَةٌ تحْملُهُ الملائكَةُ؛ قلتُ: ما تحملُونَ؟ قال: عمُودُ الإسْلام، أُمِرْنَا أنْ نَضَعَه بالشَّام، وبينَا أنا نائمٌ إذ رأيتُ الكتَابَ اخْتُلسَ من تحت وسَادَتي، فظَنَنْتُ أنَّ اللهَ قد تخلَّى من أهْلِ الأرض، فأتْبَعتُه بصَري، فإذَا هُو نُورٌ بينَ يدَيْ حتَّى وضَعَ بالشَّام، فمَنْ أبَى فَلْيَلْحَقْ بيَمَنه، وليَسْتَق من غُدُره، فإنَّ اللهَ قد تكفَّلَ لي بالشَّام».

■■■

أخرجه الطَّبراني في «مسند الشَّاميِّين» (601)، والرَّبعي في «فضائل الشَّام» (21) من طريق هشام بن عمَّار، ثنا عبد الله بن عبد الرَّحمن ابن يزيد بن جابر، عن أبيه، حدَّثنا أبو عبد السَّلام صَالح بن رُسْتُم مولى بني هاشم، عن عبدِ الله بن حَوَالة الأزدي به.

قال الهيثمي (58/10): «رواه الطَّبراني، ورجالُه رجال الصَّحيح غير صَالح بن رُسْتُم، وهو ثقة».

وحسَّن إسناده الحافظ في «الفتح» (403/12)؛ لكنَّ الألباني ضعَّف بعض ألفاظ الحديث وحكم بنكارتها كذكر ليلة الإسراء، وجملة الظَّنِّ؛ وأنَّ علَّته صالح ابن رُستُم فإنَّه مجهولٌ، كما في «الضَّعيفة» (619/14)، وفي «تخريج أحاديث فضَائل الشَّام» (9).

❁❁❁

فخُلاصة القَول أنَّ الحديثَ يثبت من طريق عبد الله بن عَمْرو، وأبي الدَّرداء، وعبيد الله أو عبد الله بن عُمَر، وابن حوالة ﭫ ؛ والله أعلم.

قال شيخ الإسلام ابن تيميَّة: «وقد جاءَ في فضائل الشَّام وأهلِه[1] أحاديثُ معروفة، لم يَجِئْ مثلُها في العراق وغيره من الأمصار»[2].

■ قوله: «إنِّي رأيتُ»: ورؤيا الأنبياء عليهم السَّلام ـ كما هُو معلوم ـ وحيٌ؛ قال عُبَيد بن عُمَير: «إنَّ رُؤْيَا الأَنْبِيَاء وَحْيٌ؛ ثُمَّ قَرَأَ: ﴿إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ﴾ [الصافات : 102]»[3]، وإذا كان الأمر كذلك فإنَّه يؤخذ منها أحكام الشَّريعة.

■ قوله: «عَمُود الكتاب»: قال شيخ الإسلام ابن تيميَّة: «وعمودُ الكتاب والإسلام: ما يُعتَمد عليه وهُم حمَلَتُه القائمونَ به»[4]؛ ولهذا قال العلماءُ: مَن رأى في منامه عمودًا فإنَّه يُعبَّر بالدِّين أو برجُلٍ يُعتَمد عليه فيه؛ وفسَّروا العَمود بالدِّين والسُّلطان[5].

---

(1) وقد صنِّف في فضل الشَّام وسكناها مصنَّفات عدَّة منها: «فضائل الشَّام» لأبي الحسن الرَّبعي المالكي (435هـ)، و«فرط الغَرام إلى ساكني الشَّام» لعبد الكريم السَّمعاني (562 هـ)، و«مثير الغَرام لساكني الشَّام» لأبي الفرج ابن الجوزي (597 هـ)، و«ترغيب أهل الإسلام في سُكنى الشَّام» للعزِّ بن عبد السَّلام (660 هـ)، و«فضائل الشَّام» للحافظ محمَّد بن عبد الواحد المقدسي (643 هـ)، و«إيقَاظ الوسنان في تفضيل دمشق على سائر البُلدان» لشرف الدِّين التُّنوخي الحنفي (673 هـ)، و«الإعلام بفضائل الشَّام» لابن الفركاح (729 هـ) وهو اختصار لكتاب الرَّبعي؛ و«فضائل الشَّام» لابن رجب، و«فضائل الشَّام» لابن عبد الهادي، و«بهجة الأنام في فضائل الشَّام» لابن طولون (953 هـ)، و«تحفة الأنام في فضائل الشَّام» لابن الإمام (1015 هـ)، و«نزهة الأنَام في مناقب الشَّام» لأبي البَقَاء البدري الشَّافعي.

(2) «جامع المسائل» (100/2).

(3) البخاري (138).

(4) «مجموع الفتاوى» (42/27).

(5) «المعلم» لابن طاهر المقدسي (403/12)، «فتح الباري» (403/12).

■ قوله: «عُمِدَ به إلى الشَّام»: أي ذُهب به وأُخذ إلى الشَّام[6]؛ والشَّام اليوم هي بلاد سورية ولبنان والأردن وفلسطين.

■ قوله: «الفتَن»: المقصود بها الملاحم الَّتي تقعُ آخر الزَّمن.

ففي هذا الحديث أنَّ بلاد الشَّام ستكون في آخر الزَّمن موئلا للإيمان وملاذًا للمُؤمنين، فكما أنَّ مبتدأ هذا الدِّين كان بمكَّة أمِّ القُرى ومنها طبَّق نورُه الأرض، فإنَّ آخرَ أمره سيكونُ بالشَّام، وسيكون الإيمانُ والإسلامُ به أظهَر.

❁❁❁

ويصدِّقُ هذا الأمر النُّصوص النَّبوية الكثيرةُ الواردة في ذلك.

ومن لطيف ما يفيد ذلك ما ورد عن أبي أمامة رضي الله عنه قال: قُلْتُ: يَا نَبِيَّ اللهِ؛ مَا كَانَ أَوَّلُ بَدْءِ أَمْرِكَ؟ قَالَ: «دَعْوَةُ أَبِي إِبْرَاهِيمَ، وَبُشْرَى عِيسَى، وَرَأَتْ أُمِّي أَنَّهُ يَخْرُجُ مِنْهَا نُورٌ أَضَاءَتْ مِنْهُ قُصُورُ الشَّامِ»[7].

قال ابن كثير في «تفسيره» (444/1):

«وتخصيصُ الشَّام بظهور نوره إشارةٌ إلى استقرار دينه وثبوته ببلاد الشَّام، ولهذا تكونُ الشَّامُ في آخر الزَّمان معقلاً للإسلام وأهله».

قال ابن تيمية في «مجموع الفتاوى» (507/27):

«وفيها - أي أرض الشَّام - مبعَث أنبياء بني إسرائيل، وإليها هجرةُ إبراهيم عليه السلام، وإليها مسرَى نبيِّنا صلى الله عليه وسلم، ومنها معراجُه، وبها مُلكُه، وعمودُ دينه وكتابه، وطائفة منصورَة من أمَّته؛ وإليها المحشَر والمعَاد، كما أنَّ من مكَّة المبدَأ؛ فمكَّة أمُّ القُرى من تحتها دُحيت الأرضُ، والشَّام إليها يُحشَر النَّاس، كما في قَوله: ﴿لِأَوَّلِ الْحَشْرِ﴾ [الحشر: 3] نبَّه على الحشر الثَّاني؛ فمكَّة مبدأٌ، وإيليَا معادٌ في الخلق؛ وكذلكَ في الأمر فإنَّه أُسريَ بالرَّسول صلى الله عليه وسلم من مكَّة إلى إيليَا؛ ومبعثُه ومخرَجُ دينه من مكَّة، وكمالُ دينه وظهورُه وتمامُه حتَّى مملكَة المهدي بالشَّام؛ فمكَّة هيَ الأوَّل، والشَّام هيَ الآخر في الخلْق والأمر في الكلمات الكَونيَّة والدِّينيَّة».

وهي عُقْر دار المؤمنين[8]، وبها طائفةٌ منصورةٌ إلى قيام السَّاعة.

ففي «صحيح مسلم» (1925) قال صلى الله عليه وسلم: «لا يَزَالُ أَهْلُ الغَرْبِ ظَاهِرِينَ عَلَى الحَقِّ، حَتَّى تَقُومَ السَّاعَةُ».

وأهل الغَرب هُم أهل الشَّام كما قال الإمام أحمد، وتبعَه على ذلك جمعٌ من العُلماء المحقِّقين[9].

ولهذا لمَّا سأل مُعاوية بن حَيْدة رضي الله عنه فقال: «يَا رَسُولَ اللهِ! أَيْنَ تَأْمُرُنِي؟ قَالَ: هاهُنَا، ونَحَا بيَدِه نحْوَ الشَّام»[10].

وقال صلى الله عليه وسلم في حديث ابن حَوَالة رضي الله عنه الآتي: «عَلَيْكَ بِالشَّامِ، فَإِنَّهُ خِيرَةُ اللهِ مِنْ أَرْضِه، يَجْتَبِي إِلَيْهِ خِيرَتَهُ مِنْ عِبَادِه».

وهذا كلُّه لحفظ الله تعالى لهذه البقعة المباركة من الأرض.

وقد صحَّ عند التِّرمذي[11] من حديث زيد بن ثابت رضي الله عنه، قال: «كُنَّا عِنْدَ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم نُؤَلِّفُ[12] القُرْآنَ مِنَ الرِّقَاعِ؛ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم: طُوبَى للشَّام؛ فَقُلْنَا: لأَيٍّ ذَلِكَ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: لأَنَّ مَلائِكَةَ الرَّحْمَنِ بَاسِطَةٌ أَجْنِحَتَهَا عَلَيْهَا»؛ وقَد جعل النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم فسادَ أهل الشَّام مُؤذنًا بذَهاب الخير منَ الأمَّة، فقال: «إِذَا فَسَدَ أَهْلُ الشَّامِ فَلاَ خَيْرَ فِيكُمْ، لا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي مَنْصُورِينَ لاَ يَضُرُّهُمْ مَنْ خَذَلَهُمْ حَتَّى تَقُومَ السَّاعَةُ»[13].

وجعَل صلاحَها مُبشِّرًا بصَلاح أمر الأمَّة كلِّها، وإنَّ ذهاب صالحي الشَّام ومؤمنيهم مؤذنٌ بزوال الدُّنيا وخراب العالم؛ لهذا كانت الرِّيح الباردة الَّتي يرسلُها الله تعالى فلا يبقى على وجه الأرض أحدٌ في قلبه مثقالُ ذرَّة من خير أو إيمانٍ إلاَّ قبضَتْهُ تأتي من قِبَل الشَّام[14].

□□□

ولقد كانت أرض الشَّام منذ عقود بعيدة منارًا للعلم والإيمان، وآوى إليها كثيرٌ من الأخيار، ولمن أرادَ أن يقفَ على الكمِّ الهائل من الصحابة رضي الله عنهم والعُلماء والصَّالحين والأعيان الأماثل الَّذين سكنوا الشَّام أو حلُّوا بها، فليرجع على سبيل المثال إلى كتاب «تاريخ دمشق» للحافظ ابن عساكر: (المتوفَّى 571هـ) فإنَّه يقع في أربعة وسبعين

(6) قال البخاري رحمه الله في «صحيحه» (179/4): «سمِّيت اليَمن؛ لأنَّها عن يمين الكعبة، والشَّامَ؛ لأنَّها عن يسار الكعبة، والمَشْأَمَةُ: الميسَرَةُ، واليدُ اليُسرى الشُّؤْمَى، والجَانبُ الأيسرُ: الأَشْأَمُ».

(7) أخرجه أحمد (22261)، والطَّيالسي (1140) وغيرهما؛ وانظر «الصَّحيحة» (1546).

(8) أحمد (16965)، والنَّسائي (3561)، وصحَّحه الألباني في «الصَّحيحة» (1935).

(9) «مجموع الفتاوى» (544/4 - 545؛ 507/27 - 508).

(10) التِّرمذي (2192)، وأحمد (20031، 20050).

(11) برقم (3954)، وصحَّحه الألباني في «الصَّحيحة» (503).

(12) قال البيهقي في «شعب الإيمان» (342/1): «وإنَّما أراد - والله أعلم - تأليف ما نزل من الآيات المتفرِّقة في سورتها، وجمعها فيها بإشارة من النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم».

(13) التِّرمذي (2192)، وقال: حسن صحيح.

(14) مسلم (2940).

مجلدًا دون الفهارس، وهذا إلى زمانه فحسب؛ وإلاَّ لم تُعدم الشَّام أبدًا من حُماة الدِّين وحَمَلة الشَّريعة وبخاصَّة أهل الحديث والسُّنَّة منهم، وخير دليل مادي على ذلك ما تزخر به المكتبة الظَّاهريَّة بدمشق من مخطوطات الحديث وأجزائه الَّتي خلَّفها السَّالفون من المقادسة وغيرهم.

□□□

كما أنَّ بلاد الشَّام كانت دومًا مقبرةً لأعداء الإسلام؛ ففيها انكسَرَ الصَّليبيُّون، وفيها هُزم التَّتار أيَّام شيخ الإسلام ابن تيميَّة رَحِمَهُ اللَّهُ، وستكون كذلك في المستقبل بحيثُ سيُغلَبُ فيها الرُّوم كما في حديث المَلحمة الكُبرى[15]، وفيها يهلكُ المسيحُ الدَّجَّال ويقتلُه الله بيد عيسى ابن مريم عليه الصَّلاة والسَّلام[16]، وفيها يُقهَر اليَهود بعد أن يُقاتلهم المسلمون، ويبقى الظُّهور للإسلام وحده.

□□□

ومن أعظم مناقب الشَّام أنَّها أرضٌ مبارَكةٌ، بنصِّ القرآن على ذلك في خمس آيات[17]:

قوله تعالى في قصَّة موسَى عليه السَّلام: ﴿وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ۖ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا۟ ۖ﴾ [الأعراف: 138]، ومعلومٌ أنَّ بني إسرائيل إنَّما أُورِثوا مشارقَ أرض الشَّام ومغاربَها بعد أن أُغرقَ فرعونُ في اليمِّ.

وقوله تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ

(15) مسلم (2899).

(16) مسلم (2897).

(17) وهذه الفائدة من كيس شيخ الإسلام ابن تيمية تجدها في «مجموع الفتاوى» (27/44).

ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ﴾ [الإسراء: 2]، وحوله أرضُ الشَّام.

وقوله تعالى في قصَّة إبراهيم: ﴿وَنَجَّيْنَٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَٰلَمِينَ ﴿٧١﴾﴾ [سورة الأنبياء] ومعلومٌ أنَّ إبراهيم إنَّما نجَّاه الله، ولوطًا إلى أرض الشَّام من أرض الجزيرة والفُرات.

وقوله تعالى: ﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِى بِأَمْرِهِۦٓ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ۚ﴾ [الأنبياء: 81] وإنَّما كانت تجري إلى أرض الشَّام الَّتي فيها مملكةُ سليمان.

وقوله تعالى في قصَّة سبأ: ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ٱلْقُرَى ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَٰهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا ٱلسَّيْرَ ۖ﴾ [سبأ: 18] وهما كانَا بينَ اليمن مساكن سَبأ وبينَ منتهى الشَّام منَ العمارة القَديمة كما قد ذَكره العُلماء.

والنَّبيُّ ﷺ يقول: «اللَّهمَّ باركَ لنا في شَامنا، اللَّهمَّ بارك لنَا في يمَننا»[18].

و«البَركة» تتَناولُ البَركة في الدِّين والبَركة في الدُّنيا[19].

وإنَّ وصفَ الشَّام في هذه النُّصوص بالبركة لمُبشِّرٌ بأنَّه لن يطُولَ فيها أَمَدُ الفتنة وزمن الطُّغيان؛ لأنَّها موطنُ برَكة وأمنٍ وإيمانٍ؛ بل إنَّ أهل الشَّام محفوفون بالرِّعاية والعناية الإلهيَّة؛ قال ﷺ: «فَإنَّ الله قَدْ تَكَفَّلَ لي بالشَّام وأَهْله»[20]، ومَن تكفَّل الله به فلا ضيعةَ عليه.

□□□

(18) أخرجه البخاري (7094) من حديث ابن عمر رضي الله عنه.

(19) «مجموع الفتاوى» (27/44)، وانظر: «شرح النووي على مسلم» (9/142)، و«فتح الباري» (4/98).

(20) أحمد (20356)، وأبو داود (2483)، وابن حبَّان (7306)، والحاكم (4/510) من حديث عبد الله بن حوالة رضي الله عنه، وصحَّحه الحاكم ووافقه الذَّهبي، وأقرَّهما الألباني في «تخريج أحاديث فضائل الشَّام» للربعي (ص10).

وهذا لا يعني أنَّ كلَّ مَن سكنَ الشَّام هو أفضل من غَيره، ولا أنَّ سكنى الشَّام أفضل من السُّكنى في غيره لكلِّ أحد وفي كلِّ زمن، وإنَّما ـ كما قال شيخ الإسلام ابن تيميَّة ـ:

«هذَا من حيثُ الجملة والغَالب؛ وأمَّا كثيرٌ منَ النَّاس فقَد يكونُ مقامُه في غَير الشَّام أفضَلَ له، وكثيرٌ من أهل الشَّام لو خرجُوا عنها إلى مكان يكونُون فيه أطوَعَ لله ولرسوله لكانَ أفضَلَ لهم».

وقال: «فإنَّ كونَ الأرض «دار كُفر» أو «دار إسلام أو إيمان» أو «دار سِلم» أو «حَرب» أو «دَار طاعة» أو «معصية» أو «دَار المُؤمنين» أو «الفَاسقين» أوصافٌ عارضَةٌ لا لازمَةٌ؛ فقَد تنتَقلُ من وصف إلى وصف كما ينتَقل الرَّجُل بنفسه منَ الكُفر إلى الإيمان والعلم وكذَلك بالعَكس، وأمَّا الفَضيلة الدَّائمة في كلِّ وقت ومكانٍ ففي الإيمانِ والعَملِ الصَّالح»[21].

□□□

فالوصيَّةُ لكلِّ مَن امتَنَّ الله عليه بالإقامة في بلاد الشَّام أن يشكُر نعمةَ الله عليه، وذلك بلزوم العَمل الصَّالح وإخلاص العبادة لله وحده وتجريدِ المتابعَة لرسُوله ﷺ، ومن جميل كلام سَلمان الفَارسي رضي الله عنه وحُسن فقهه: أنَّ أبا الدَّرداء ـ وكان بأرض الشَّام ـ كتبَ إليه: أَنْ هَلُمَّ إِلَى الأَرْضِ المُقَدَّسَة؛ فَكَتَبَ إلَيْه سَلْمَانُ: «إنَّ الأَرْضَ لا تُقَدِّسُ أَحَدًا، وإنَّمَا يُقَدِّسُ الإِنْسَانَ عَمَلُهُ»[22]؛ والحمد لله وحده.

□□□

(21) «مجموع الفتاوى» (27/44).

(22) أخرجه مالك في «الموطأ» (3022 ـ رواية أبي مصعب)، وابن وضَّاح في «البدع» (137)، واللالكائي في «شرح أصول الاعتقاد» (1718).



كيفية الاشتراك..



يرجى إرسال طلب يتضمن الأمور التالية:

- الاسم واللقب.
- العنوان.
- الهاتف.
- الوظيفة.
- وصل الحوالة البريدية.

ترسل الحوالة البريدية باسم توفيق عمروني على الحساب البريدي الجاري:

ccp 4142776 clé 96

●●●

العنوان: دار الفضيلة للنشر والتوزيع

حي باحة (03)، رقم (28) الليدو. المحمدية. الجزائر

الأفراد: 900 دج - المؤسسات 1000 دج

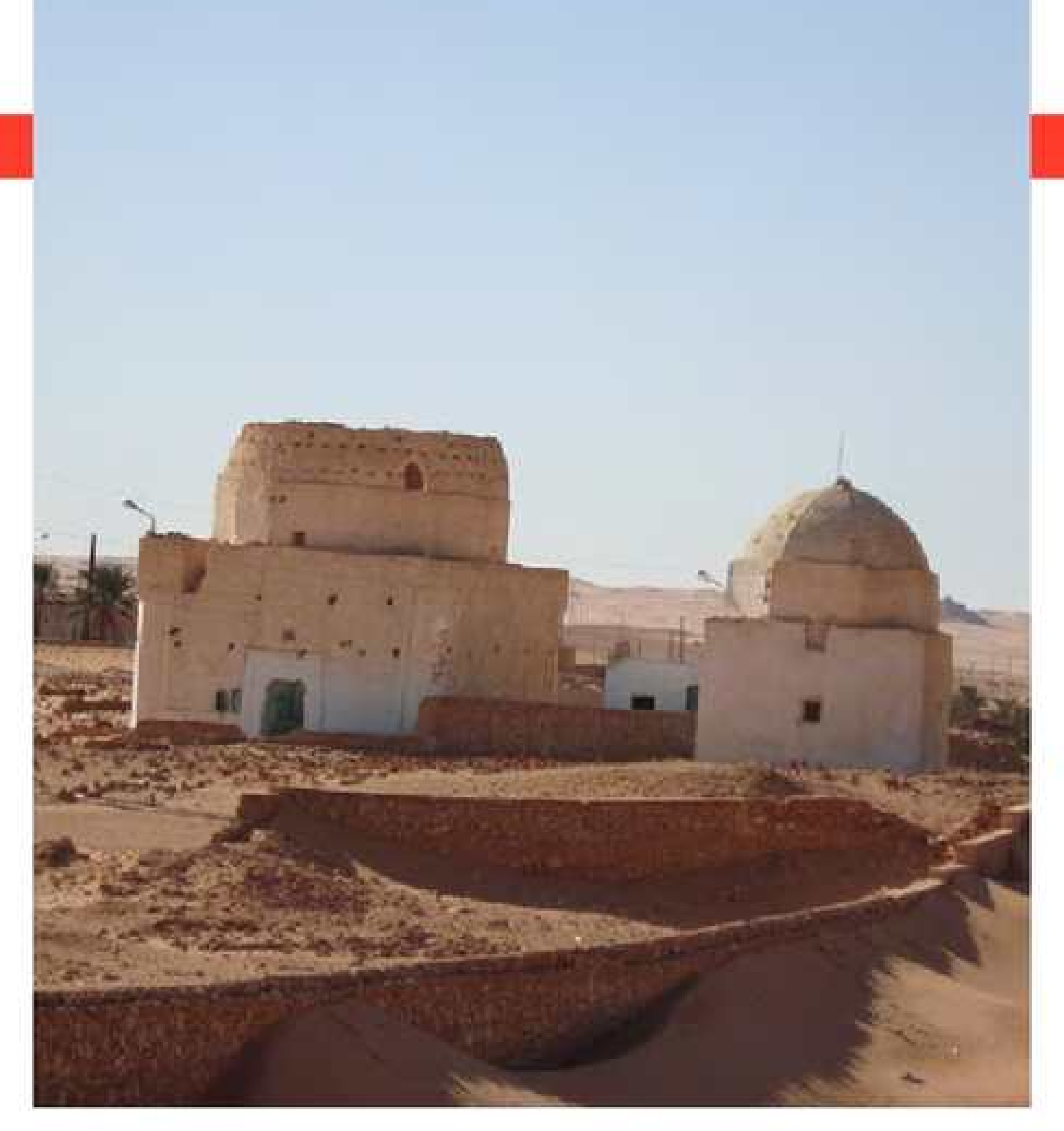


الإصلاح في ثلاث مجلدات من العدد (1) إلى العدد (18)

يطلب من دار الفضيلة للنشر والتوزيع بسعر (1800 دج) شامل لمصاريف الشحن

التوحيد الخالص

تحذير العابد من اتخاذ القبور مزارات ومشاهد



د.كمال قالمي

أستاذ الحديث في جامعة الجوف ـ السعودية

ما زالت دعوة رسول الله ﷺ من أوَّل بعثته إلى آخر حياته قائمة على الإنذار والتحذير من الشِّرك بجميع صوره وبكلِّ أنواعه جليِّه وخفيِّه، كبيره وصغيره.

ولما كانت الفتنة بالقبور هي سبب أوَّل شرك ظهر على وجه الأرض[1]، تواترت الأحاديث بالتَّغليظ والنَّهي عن بناء القبور وتجصيصها، وعن الصَّلاة عليها وإليها، وعن اتِّخاذها مساجد وأعيادًا، وإيقاد القناديل والسُّرج عليها وغير ذلك.

كلُّ ذلك حماية لجناب التَّوحيد الخالص، وحسمًا لمادَّة الشِّرك واجتثاثًا لجذوره واقتلاعًا لأصوله، وسدًّا لكلِّ باب وطريق يفضي إليه.

ومن تلك الأحاديث ما جاء في «الصَّحيحين»[2] عن عائشة رضي الله عنها قالت: لما اشتكى النَّبيُّ ﷺ ذكرتْ بعضُ نسائه كنيسةً رأينَهَا بأرض الحبشة يُقال لها ماريَةُ وكانت أمُّ سلمةَ وأمُّ حبيبةَ رضي الله عنهما أتتا أرض الحبشة فذكرتا منْ حُسْنها وتصاويرَ فيها فرفع رأسَهُ، فقال: «**أُولَئكَ إذَا مَاتَ مِنْهُمُ الرَّجُلُ الصَّالحُ بَنَوْا عَلَى قَبْره مَسْجدًا، ثُمَّ صَوَّرُوا فيه تِلْكَ الصُّورَةَ، أُولَئكَ شِرَارُ الخَلْق عِنْدَ الله**».

وعن عائشة وابن عبَّاس رضي الله عنهم، قالا: لَمَّا نزل برسول الله ﷺ طفقَ يطرحُ خَميصَةً على وجهه فإذا اغتمَّ كشفها عن وجهه، فقال ـ وهو كذلك ـ: «**لَعْنَةُ الله عَلَى اليَهُود وَالنَّصَارَى اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبيَائهمْ مَسَاجدَ**» يُحَذِّرُ مَا صَنَعُوا. متفق عليه[3].

وعن جُندب بن عبد الله البجلي رضي الله عنه قال: سمعت النَّبيَّ ﷺ ـ قبل أن يموت بخمس ـ وهو يقول...: «**أَلاَ وَإِنَّ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ كَانُوا يَتَّخذُونَ قُبُورَ أَنْبيَائهمْ وَصَالحيهمْ مَسَاجدَ أَلاَ فَلاَ تَتَّخذُوا القُبُورَ مَسَاجدَ إِنِّي أَنْهَاكُمْ عَنْ ذَلكَ**» رواه مسلم[4].

وعن جابر رضي الله عنه قال: «نَهَى رَسُولُ اللَّه ﷺ أَنْ يُجَصَّصَ القَبْرُ، وَأَنْ يُقْعَدَ عَلَيْه، وَأَنْ يُبْنَى عَلَيْه» رواه مسلم[5].

وقد دلَّت هذه النُّصوص بمنطوقها ومفهومها على أمور:

منها: تحريم بناء المساجد على القبور؛ ولذلك لَمَّا قدم رسول الله ﷺ المدينة أمر ببناء المسجد في حائط لبني النَّجَّار وكان فيه قبور للمشركين، وفيه خَرِب، وفيه نخل، فأمر ﷺ بالقبور فنُبشت، والحديث في «الصَّحيحين»[6].

ومنها: تحريم الصَّلاة في القبور، وإن لم يُبن عليها مسجد.

قال ابن تيمية رحمه الله: «فإنَّ ذلك أيضًا اتِّخاذها مسجدًا، كما قالت عائشة: «ولولا ذلك لأُبرز قبره ولكن خشي أن يُتَّخذ مسجدًا»[7]، ولم تقصد عائشة رضي الله عنها مجرَّد بناء مسجد، فإنَّ الصَّحابة لم يكونوا ليبنوا حول قبره مسجدًا، وإنَّما قصدت أنَّهم خشوا أنَّ النَّاس يصلُّون عند قبره، وكلُّ موضع قصدت الصَّلاة فيه فقد اتُّخذ مسجدًا... كما قال النَّبيُّ ﷺ: «جُعلَتْ لي الأَرْضُ مَسْجدًا وَطَهُورًا»[8]»[9].

(1) انظر: «إغاثة اللَّهفان» (346/1) وما بعدها.

(2) «صحيح البخاري» (1341)، و«صحيح مسلم» (528).

(3) «صحيح البخاري» (3453)، و«صحيح مسلم» (531).

(4) «صحيح مسلم» (532).

(5) برقم (970).

(6) «صحيح البخاري» (428)، و«صحيح مسلم» (524) من حديث أنس رضي الله عنه.

(7) البخاري (1390)، ومسلم (529).

(8) متَّفق عليه: «صحيح البخاري» (438)، و«صحيح مسلم» (521) من حديث جابر رضي الله عنه.

(9) «اقتضاء الصِّراط المستقيم» (677/2).

والأدلَّة على تحريم الصَّلاة في المقابر وإليها كثيرة، كقوله ﷺ: «صَلُّوا فِي بُيُوتِكُمْ وَلاَ تَتَّخِذُوهَا قُبُورًا» متَّفق عليه[10]؛ لأنَّ القبور ليست محلاًّ للصَّلاة.

وقوله ﷺ: «لاَ تُصَلُّوا إِلَى الْقُبُورِ، وَلاَ تَجْلِسُوا عَلَيْهَا» رواه مسلم[11].

ومنها: النَّهي عن دفن الموتى في المساجد.

وهذه فتنة أخرى ابتلي بها بعض النَّاس حيث يدفنون من يعظِّمونه في المسجد، بل إنَّ بعضهم يبني مسجدًا ويوصي بأن يدفن فيه إذا مات، وهذا كلُّه من البدع المحدثة الَّتي تؤول مع مرور الزَّمن إلى الشِّرك بالله تعالى.

وللفائدة أنقل لك ـ أخي القاري ـ نصَّ فتوى للشَّيخ العلاَّمة عبد العزيز بن باز رحمه الله يستنكر فيها ما نشرته بعض الصُّحف السُّودانيَّة بخصوص دفن المدعو السَّيِّد محمَّد الحسن الإدريسي بجوار أبيه في مسجدهم.

فقال رحمه الله: «ولمَّا أوجب الله من النُّصح للمسلمين، وبيان إنكار المنكر؛ رأيت التَّنبيه على أنَّ الدَّفن في المساجد أمر لا يجوز، بل هو من وسائل الشِّرك، ومن أعمال اليهود والنَّصارى الَّتي ذمَّهم الله عليها، ولعنهم رسوله ﷺ ـ ثمَّ ساق حديث عائشة وجندب رضي الله عنهما السَّابقين ـ قال: والأحاديث في هذا المعنى كثيرة.

فالواجب على المسلمين في كلِّ مكان ـ حكومات وشعوبًا ـ أن يتَّقوا الله، وأن يحذروا ما نهى عنه، وأن يدفنوا موتاهم خارج المساجد، كما كان النَّبيُّ ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم يدفنون الموتى خارج المساجد، وهكذا أتباعهم بإحسان.

وأمَّا وجود قبر النَّبيِّ ﷺ وصاحبيه أبي بكر وعمر رضي الله عنهما في مسجده ﷺ فليس به حجَّة على دفن الموتى في المساجد؛ لأنَّه ﷺ دفن في بيته ـ في بيت عائشة رضي الله عنها ـ ثمَّ دفن صاحباه معه، فلمَّا وسَّع الوليد بن عبد الملك المسجد أدخل الحجرة فيه على رأس المائة الأولى من الهجرة، وقد أنكر عليه ذلك أهل العلم، ولكنَّه رأى أنَّ ذلك لا يمنع من التَّوسعة، وأنَّ الأمر واضح لا يشتبه.

وبذلك يتَّضح لكلِّ مسلم أنَّه ﷺ وصاحبيه رضي الله عنهما لم يدفنوا في المسجد، وإدخالهم فيه بسبب التَّوسعة ليس بحجَّة على جواز الدَّفن في المساجد؛ لأنَّهم ليسوا في المسجد، وإنَّما هم في بيته ـ عليه الصَّلاة والسَّلام ـ، ولأنَّ عمل الوليد لا يصلح حجَّة لأحد في ذلك، وإنَّما الحجَّة في الكتاب والسُّنَّة، وفي إجماع سلف الأمَّة رضي الله عنهم، وجعلنا من أتباعهم بإحسان»[12].

(10) «صحيح البخاري» (1187)، و«صحيح مسلم» (777) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.
(11) «صحيح مسلم» (972) من حديث أبي مرثد رضي الله عنه.
(12) «فتاوى ابن باز» (8/326 ـ 327).

ومن الأمور المنهيِّ عنها في هذه الأحاديث: تشييد القبور وبناؤها بالجصِّ ونحوه ورفعها عن الأرض.

ففي «صحيح مسلم»[13] عن أبي الهَيَّاج الأسدي قال: قال لي علي بن أبي طالب رضي الله عنه: ألا أبعثك على ما بعثني عليه رسول الله ﷺ: «**أَنْ لاَ تَدَعَ تِمْثَالاً إِلاَّ طَمَسْتَهُ وَلاَ قَبْرًا مُشْرِفًا إِلاَّ سَوَّيْتَهُ**».

وفيه[14] عن ثمامة بن شُفَيٍّ قال: «كنَّا مع فَضَالَةَ بن عُبَيْد رضي الله عنه بأرض الرُّوم بِرُودِسَ، فَتُوُفِّيَ صاحبٌ لنا فأَمَرَ فَضَالَةُ ابنُ عُبَيْد بقَبْرِهِ فَسُوِّيَ ثمَّ قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يأمر بتسويتها».

وهذا أبو موسى الأشعري رضي الله عنه يوصي أن لا يجعل على قبره بناء[15].

وكانت مقابر المسلمين في زمن الصَّحابة الكرام والتَّابعين لهم بإحسان في عافية من الأبنية والتَّجصيص والقباب امتثالاً للوصايا النَّبويَّة، فجرَّدوا التَّوحيد وحموا جانبه، ولم يفعلوا عند القبور إلاَّ ما أذن فيه الشَّرع من السَّلام على أهلها والاستغفار لهم والتَّرحُّم عليهم.

حتَّى إذا انقرضت القرون الخيريَّة ودبَّ في الأمَّة الضَّعف والفرقة؛ أحدث الرَّافضة البناء على القبور قال ابن تيمية رحمه الله: «أمروا ببناء المشاهد وتعطيل المساجد محتجِّين بأنَّه لا تصلَّى الجمعةُ والجماعةُ إلاَّ خلف المعصوم، وَرَوَوْا في إنارة المشاهد وتعظيمها والدُّعاء عندها من الأكاذيب ما لم أجد مثله فيما وقفتُ عليه من أكاذيب أهل الكتاب، حتَّى صنَّف كبيرُهم ابنُ النُّعمان كتابًا في «مناسك حَجِّ المشاهد» وكذبُوا فيه على النَّبيِّ ﷺ وأهل بيته أكاذيب بدَّلوا بها دينه وغيَّروا ملَّته، وابتدعوا الشِّرك المنافي للتَّوحيد، فصاروا جامعين بين الشِّرك والكذب»[16].

ثمَّ جاء الصُّوفيَّة؛ فترسَّموا خطاهم ونسجوا على منوالهم، حتَّى ارتبط اسم كلِّ صاحب طريقة منهم بضريح أو أكثر، وصارت كلُّ بلدة أو قرية تفتخر بكثرة ما فيها من الضَّرائح والقباب والمقامات!

وعند زيارتهم لها وشدِّ الرِّحال إليها لا تسأل عمَّا يُمارس فيها من شركيَّات ومخالفات كالتَّمسُّح بحيطانها، وتعفير الخدود على أعتابها، وتقديم القرابين لها والنُّذور، وتعليق الخرق عليها والسُّتور، وإيقاد المصابيح والشُّموع، والعكوف عليها في غاية الذُّلِّ والخشوع، وسؤال أصحابها بأنواع التَّوسُّلات والتَّضرُّعات،

(13) «صحيح مسلم» (969).
(14) «صحيح مسلم» (968).
(15) رواه الإمام أحمد (19547)، وابن حبَّان (3150) وسنده حسن.
(16) «مجموع الفتاوى» (27/161 ـ 162)، وانظر: (27/466).

بإغاثة اللَّهفات وتفريج الكربات، وغير ذلك من الحاجات والقربات، الَّتي لا تسأل إلاَّ من ربِّ الأرض والسَّموات ولا تصرف إلاَّ له سبحانه وتعالى.

كلُّ ذلك - وغيره كثير - يحصل ويمارس على مرأى ومسمع من بعض الجهات المعنية، بل إنَّها تسعى حثيثًا في إحياء تلك الزَّوايا والمزارات، ودعمها بالأموال والمؤتمرات، بحجَّة أنَّها روح الأمَّة وتاريخها التَّليد، بل عودة بها إلى الشِّرك والتَّنديد، الَّذي حاربه دعاة الإصلاح والتَّوحيد.

وأمَّا دعاة الحزبيَّات، الَّذين ملأوا الدُّنيا بالضَّجيج والصَّيحات، على تطبيق شريعة ربِّ البريَّات، فمنهم من هاجسه التَّصويت والانتخابات، ومنهم من اشرأبَّت عنقه إلى مقاعد البرلمان والوزارات، ومنهم من دَيْدَنه التَّهييج والثَّورات، ومنهم من يزيِّن للشَّباب التَّضحيات والانتحارات، والكلُّ يتباكى على حقوق الشَّعب والمواطنين، ولو كانوا غارقين في الخرافة والقبوريَّة، فأين هم من تطبيق شرع ربِّ العالمين إذا ضاع التَّوحيد الَّذي هو أعظم حقِّ الله على العبيد إن كانوا صادقين؟!

ولولا أنَّ الله - عزَّ وجلَّ - أقام لدينه في كلِّ حين وزمان من يذبُّ عنه من أولي العلم والعرفان لانطمست معالم التَّوحيد والإيمان، ولاستفحل الشِّرك في كلِّ مكان، ولرجع النَّاس إلى الجاهليَّة الأولى وعبادة الأوثان، كما جرى على ما قبله من الأديان، وإنَّا لله وإنَّا إليه راجعون، والله وحده المستعان.

فقام علماء السُّنَّة بما أوجب الله عليهم من الأمر بالمعروف والنَّهي عن المنكر، وبيان ذلك من خلال مؤلَّفات مفيدة مدعومة بالحجَّة والبرهان، مثل كتاب «اقتضاء الصِّراط المستقيم مخالفة أصحاب الجحيم» لشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله، وكتاب «إغاثة اللَّهفان من مصايد الشَّيطان» للعلاَّمة ابن قيِّم الجوزيَّة رحمه الله، وكتاب «تجريد التَّوحيد المفيد» للعلاَّمة المقريزي، وكتاب «الدُّرُّ النَّضيد في إخلاص كلمة التَّوحيد» للعلاَّمة محمَّد بن عليٍّ الشَّوكاني رحمه الله، وكتاب «تطهير الاعتقاد من أدران الإلحاد» للعلاَّمة الأمير الصَّنعاني رحمه الله، وكتاب «الشِّرك ومظاهره» للعلاَّمة مبارك الميلي رحمه الله، وكتاب «تحذير السَّاجد من اتِّخاذ القبور مساجد» للعلاَّمة الشَّيخ محمَّد ناصر الدِّين الألباني رحمه الله، وكتاب «الإرشاد إلى صحيح الاعتقاد والرَّدِّ على أهل الشِّرك والإلحاد» للعلاَّمة الشَّيخ صالح الفوزان حفظه الله تعالى، وغيرها.

وأختم بكلمة بليغة من عالم مكين وناصح أمين، علَّها تجد قلوبًا واعية وآذانًا صاغية، يقول الإمام الشَّوكاني رحمه الله (ت1250هـ)، وقلبه يعتصر أَلَمًا وحسرةً على ما آل إليه حال المسلمين في زمانه: «وكم قد سرى عن تشييد أبنية القبور وتحسينها من مفاسدَ يبكي لها الإسلامُ، منها اعتقادُ الجهلة لها كاعتقاد الكفَّار للأصنام، وعَظُم ذلك فظنُّوا أنَّها قادرةٌ على جلب النَّفع ودفع الضُّرِّ، فجعلوها مقصدًا لطلب قضاء الحوائج وملجأً لنجاح المطالب، وسألوا منها ما يسأله العبادُ من ربِّهم، وشدُّوا إليها الرِّحال، وتمسَّحوا بها واستغاثوا.

وبالجملة؛ إنَّهم لم يدعوا شيئًا ممَّا كانت الجاهليَّةُ تفعله بالأصنام إلاَّ فعلوه؛ فإنَّا لله وإنَّا إليه راجعون.

ومع هذا المنكر الشَّنيع والكفر الفظيع لا تجدُ من يغضبُ لله ويغَارُ حميَّةً للدِّين الحنيف؛ لا عالِمًا ولا متعلِّمًا، ولا أميرًا ولا وزيرًا ولا ملكًا.

وقد تواردَ إلينا من الأخبار ما لا يشكُّ معه أنَّ كثيرًا من هؤلاء القبوريِّين أو أكثرهم إذا توجَّهت عليه يمينٌ من جهة خصمه حلف بالله فاجرًا!! فإذا قيل له بعد ذلك: احلف بشيخك ومعتقدك الوليِّ الفلاني؛ تلعثَمَ وتلكَّأَ وأبى واعترف بالحقِّ!! وهذا من أبين الأدلَّة الدَّالَّة على أنَّ شركهم قد بلغ فوق شركِ من قال: إنَّه تعالى ثاني اثنين، أو ثالث ثلاثة.

فيا علماءَ الدِّين! ويا ملوكَ المسلمين! أيُّ رزءٍ للإسلام أشدُّ من الكفر؟! وأيُّ بلاءٍ لهذا الدِّين أضرُّ عليه من عبادة غير الله؟! وأيُّ مصيبة يُصاب بها المسلمون تعدل هذه المصيبة؟! وأيُّ منكر يجبُ إنكاره إنْ لم يكن إنكارُ هذا الشِّرك البيِّن واجبًا؟!

لقد أسمعت لو ناديت حيًّا
ولكن لا حياةَ لمن تُنادِي
ولو نارًا نفختَ بها أضاءتْ
ولكن أنتَ تنفخُ في رمادِ»[17].

وهذا الَّذي نعاه الإمام الشَّوكاني على أهل زمانه هو بعض ضلالهم وشركهم ولم يستقص جميع أخبارهم، وما ذلك الزَّمان عنَّا ببعيد، وما أشبه اللَّيلة بالبارحة! والله المستعان ولا حول ولا قوَّة إلاَّ بالله المتعال.

أسأل الله تعالى أن يعزَّ دينه ويعليَ كلمته وينصر السُّنَّة وأهلها، وأن يدحض أهل الشِّرك والزَّيغ والإلحاد والفساد، إنَّه سبحانه وليُّ ذلك والقادر عليه.

وصلَّى الله وسلَّم على نبيِّنا محمَّد وعلى آله وصحبه أجمعين.

(17) «نيل الأوطار» (5/164 ـ 165) ـ تحقيق طارق عوض.

إيقـــاظ الـوزع في تحريـم القزع

د/عبد المجيد جمعة
أستاذ الفقه بجامعة الأمير عبد القادر ـ قسنطينة



لمَّـا رأيـت ظاهـرة القزع، قـد عمَّت في الشَّبـاب مـن بنـي جلدتنـا، وممَّـن يتكلَّـم بألسنتنا، اتِّباعًا لسَـنن أعداء ملَّتنا، وجهلاً منهـم بشعائر ديننـا، دعتني غيرتـي لبيان حكـم هـذا الحلق عبر هـذه المجلَّـة الغرَّاء، نصيحـةً للمسلمـين، كما أمرنـا بذلك سيِّد المرسلـين ﷺ، لعلَّـه ينتبـه الغافـل، ويتعلَّم الجاهل، فقسَّمت البحث إلى ستَّة مباحث.

وتفصيـلاً لهـا أقـول، ومـن الله أستمدُّ العون:

المبحث الأول ـ حقيقة القزع:

قبل أن نعرف حكم القزع، لا بدَّ من تحديد مفهومه.

فالقزع هو قِطع السَّحاب المتفرِّقة، قال ابن فارس في «معجم مقاييس اللُّغة» (84/5): «(قزع): القاف والزَّاء والعين أصل صحيح، يدلُّ على خفَّة في شيء وتفرُّق، من ذلك القزع: قطع السَّحاب المتفرِّقة، الواحدة قزعة، قال:

تَرَى عُصَبَ الْقَطَـا هَمَلاً عَلَيْه
كَـأَنَّ رِعَـالَـهُ قَزَعُ الجَهَـام

ومن الباب القزع المنهي عنه، وهو أن يُحلق رأس الصَّبيِّ، ويُترك في مواضع منه شعر متفرِّق، ورجل مُقَزَّع: لا يُرى على رأسه إلاَّ شعيرات، وفرس مُقَزَّع: رقَّت ناصيته».

ومن هذا المدلول اللُّغوي ندرك أنَّ القزع هو حلق بعض الشَّعر وترك بعضه مطلقًا، وأنَّ تقييد القزع بحلق وسط الرَّأس أو حلق بقع منه، غير صحيح.

قال القرطبي في «المفهم» (441/5): « لا خلاف أنَّه إذا حلق من الرَّأس مواضع، وأبقيت مواضع أنَّه القزع المنهي عنه، لما عرف من اللُّغة كما نقلناه، ولتفسير نافع له بذلك».

وقال النَّووي في «شرح صحيح مسلم» (101/14) عن تفسير نافع: «هو الأصحُّ وهو أنَّ القزع حلق بعض الرَّأس مطلقًا، ومنهم من قال: هو حلق مواضع متفرِّقة منه، والصَّحيح الأوَّل؛ لأنَّه تفسير الرَّاوي، وهو غير مخالف للظَّاهر، فوجب العمل به».

المبحث الثَّاني ـ حكمه:

لقد ثبت بالأدلَّة الصَّحيحة والنُّصوص الصَّريحة تحريم القزع؛ وهذه الأدلَّة مجملة ومفصَّلة

■ أمَّا الأدلَّة المجملة؛ فالنُّصوص الواردة في تحريم التَّشبُّه بالكفَّار مطلقًا، ويدخل فيها التَّشبُّه بهم في حلق الرَّأس، منها:

قوله تعالى: ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٢٠﴾﴾ [البقرة]، فنهى المسلمين عن اتِّباع طرائق اليهود والنَّصارى فيما هم عليه من الدين والعادات، بعد ما عَلموا من القرآن والسُّنَّة، متابعة لهم فيما يهوونه.

وقوله عز وجل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ ۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥١﴾﴾ [المائدة]، قال العلماء: ومن موالاتهم التَّشبُّه بهم، كما في كتاب «تشبيه الخسيس بأهل الخميس» للذَّهبي رحمه الله.

وما رواه عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ تَشَبَّهَ بِقَوْمٍ فَهُوَ مِنْهُمْ»[1]، فدلَّ هذا الحديث على تحريم التَّشبُّه بهم مطلقًا، ومنه التَّشبُّه بهم في حلق الرُّؤوس، فإنَّه من جنس أعمالهم الَّتي هي من شعائر دينهم أو من عاداتهم وتقاليدهم.

وما رواه أبو سعيد الخدري أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: «لَتَتَّبِعُنَّ سَنَنَ مَنْ قَبْلَكُمْ شِبْرًا بِشِبْرٍ وَذِرَاعًا بِذِرَاعٍ حَتَّى لَوْ سَلَكُوا جُحْرَ ضَبٍّ لَسَلَكْتُمُوهُ، قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللهِ اليَهُودَ وَالنَّصَارَى؟ قَالَ: فَمَنْ؟!»[2].

ووجه الاستدلال أنَّ النَّبيَّ ﷺ، أخبر أنَّ أمَّته ستتَّبع سَنَنَ الأمم قبلها من اليهود والنَّصارى ممَّا أحدثوه من البدع والأهواء، وأنَّها تقتدي بهم في كلِّ شيء، حتَّى فيما نهى الله تعالى عنه وذمَّه، وهذا الإخبار سيق مساق الذَّمِّ والتَّحذير من التَّشبُّه بهم، فيقتضي ذمّ من يفعل ذلك، وهذا عَلَمٌ من أعلام النُّبوة، ومعجزةٌ ظاهرة لرسول الله ﷺ، فقد وقع ما أخبر به ﷺ.

■ أمَّا الأدلَّة المفصَّلة، فقد ثبت بالسُّنَّة والإجماع والأثر والقياس والنَّظر، تحريم القزع:

■ أمَّا السُّنَّة؛ فما رواه نافع عن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ نهى عن القزع، قال: قلت لنافع: وما القزع؟ قال: «يُحْلَقُ بعضُ رأس الصَّبيِّ ويُتْرَكُ بعضٌ»، وفي رواية: «قال عبيد الله: قلت: وما القزع؟ فأشار لنا عبيد الله قال: إذا حلق الصَّبي، وترك ها هنا شعرة وها هنا وها هنا، فأشار لنا عبيد الله إلى ناصيته وجانبي رأسه»[3].

وما رواه ابن عمر رضي الله عنهما أيضًا: «أنَّ النبي ﷺ رأى صبيًّا قد حلق بعض شعره وترك بعضه، فنهى عن ذلك، وقال: احلقوه كلَّه أو اتركوه كلَّه»[4].

وما رواه عبد الله بن نافع، عن أبيه، عن صفيَّة ابنة أبي عبيد قالت: «رأى ابن عمر صبيًّا في رأسه قنازع، فقال: أمَا علمت أنَّ رسول الله ﷺ نهى أن تُحْلَق الصِّبيانُ القَزَع»[5].

وما رواه الحجَّاج بن حسَّان قال: «دخلنا على أنس بن مالك فحدَّثتني أختي المغيرة قالت: وأنت يومئذ غلام ولك قَرنان أو قُصَّتان[6] فمسح رأسك وبرَّك عليك وقال: احلقوا هذين أو قصُّوهما فإنَّ هذا زيُّ اليهود»[7].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية في «اقتضاء الصِّراط المستقيم» (386/1): «علَّل النَّهي عنهما بأنَّ ذلك زيُّ اليهود، وتعليل النَّهي بعلَّة يوجب أن تكون العلَّة مكروهة، مطلوبٌ عدمها، فعُلم أنَّ زيَّ اليهود ـ حتَّى في الشَّعر ـ ممَّا يطلب عدمه، وهو المقصود».

■ وأمَّا الإجماع؛ فإنَّ أمير المؤمنين عمر بن الخطَّاب رضي الله عنه قد جعل في الشُّروط على أهل الذِّمَّة من النَّصارى وغيرهم، فيما شرطوه على أنفسهم: «وأن نَجُزَّ مقاديم رءوسنا»[8]، وقد وافقه على ذلك سائر الصَّحابة، ولم يخالف أحد، وعمل بها سائر الأمَّة، وعامَّة الأئمَّة، فهو إجماع.

وقد حكى هذا الإجماع غير واحد من أهل العلم.

وقال النَّووي في «شرح مسلم» (101/14): «أجمع العلماء على كراهة القزع، إذا كان في مواضع متفرِّقة إلاَّ أن يكون لمداواة ونحوها».

■ وأمَّا الأثر؛ فما ثبت عن عمر رضي الله عنه في شروطه على أهل الذِّمَّة، حيث شرط عليهم: «وأن نَجُزَّ مقاديم رءوسنا»، كما تقدَّم، وإنَّما أمرهم بذلك ليتميَّزوا عن المسلمين، فمن فعله من المسلمين كان متشبِّهًا بهم.

قال الإمام ابن القيِّم رحمه الله في «أحكام أهل الذِّمَّة» (1289/3): «وقد وسم أمير المؤمنين عمر بن الخطَّاب رضي الله عنه من على رأسه شعر من أهل الذِّمَّة بوسم، ينبغي اتِّباعه، وهو أن تجزَّ نواصيهم، والنَّاصية مقدار ربع الرَّأس، فإذا كان ربعه محلوقًا، كان علمًا ظاهرًا وأمرًا مشهورًا أنَّه ذمِّيٌّ، وهذا معنى ما في كتاب أمير المؤمنين في الشُّروط: وأن

(1) أخرجه أبو داود (4031)، وجوَّد إسناده شيخ الإسلام ابن تيميَّة في «اقتضاء الصِّراط المستقيم» (240/1)، وكذا في «مجموع الفتاوى» (331/25)، وحسَّنه الحافظ في «الفتح» (271/10)، وصحَّحه الحافظ العراقي في «تخريج أحاديث الإحياء» (342/1)، والشَّيخ الألباني في «الإرواء» (1269).

(2) أخرجه البخاري (3456) ومسلم (2669).

(3) أخرجه البخاري (5920) ومسلم (2120)، والرِّواية الثانية للبخاري.

(4) أخرجه أبو داود (4195) والنَّسائي في «المجتبى» (5063) وفي «السُّنن الكبرى» (9250) وأحمد (5615)، وإسناده صحيح على شرط الشَّيخين، وقد أخرجه مسلم، ولم يذكر لفظه، انظر «الصَّحيحة» (1123).

(5) أخرجه أحمد (5846)، وعبد الله بن نافع، قال فيه الحافظ في «التَّقريب»: «ضعيف»، لكن يشهد له ما قبله.

(6) القرنان: ضفيرتان من شعر في الرَّأس، والقصَّتان: بضمِّ القاف وتشديد الصاد شعر النَّاصية، انظر «مرقاة المفاتيح» (2845/7).

(7) أخرجه أبو داود (4197)، وفي سند ضعف، لكن يشهد له ما قبله، وقد احتجَّ به شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله كما تقدَّم.

(8) هو طرف من كتاب مطوَّل، أخرجه البيهقي (339/9)، وعزاه شيخ الإسلام ابن تيميَّة في «الاقتضاء» (326/1) إلى حرب، وابن القيِّم في «أحكام أهل الذِّمَّة» (657/2) إلى عبد الله ابن الإمام أحمد، وعنه الخلاَّل في كتاب «أحكام أهل الملل»، وجوَّد إسناده ابن تيميَّة، وقال ابن القيِّم: «وشهرة هذه الشُّروط تغني عن إسنادها، فإنَّ الأئمَّة تلقَّوها بالقبول، وذكروها في كتبهم، وقد أنفذها بعده الخلفاء، وعملوا بموجبها».

نجزَّ مقادم رءوسنا».

وعن عبد الله بن الحسن، قال: «سمعت أمِّي فاطمة بنت الحسين: تنهى عن القزع»[9].

■ أمَّا القياس؛ فقد نهى النَّبيُّ ﷺ أن يقعد الرَّجل بين الظِّلِّ والشَّمس[10]، ونهى أن يمشي في نعل واحدة[11]، بل إمَّا أن يخلعهما جميعًا أو يمشي فيهما جميعًا، فيلحق بذلك القزع قياسًا، ولهذا قال النَّبيُّ ﷺ: «احْلِقُوهُ كُلَّهُ أَوِ اتْرُكُوهُ كُلَّهُ».

■ أمَّا النَّظر والاعتبار فمن وجوه:

□ أنَّه قد استقرَّ في الشَّريعة الإسلاميَّة مخالفة الكفَّار في كلِّ عاداتهم وتقاليدهم، وما اختصُّوا به، وما أحدثوه من البدع والأهواء، سواء كان في أعيادهم أو مظاهرهم أو هيئاتهم.

□ أنَّه مُثلة، قال النَّوويُّ في «شرح مسلم» (101/14): «قال العلماء: والحكمة في كراهته أنَّه تشويه للخلق».

□ أنَّه ليس من زيِّ المسلمين، بل هو من فعل المجوس، وتشبُّه بالكفَّار، وزيّ اليهود كما جاء هذا في رواية لأبي داود المتقدِّمة.

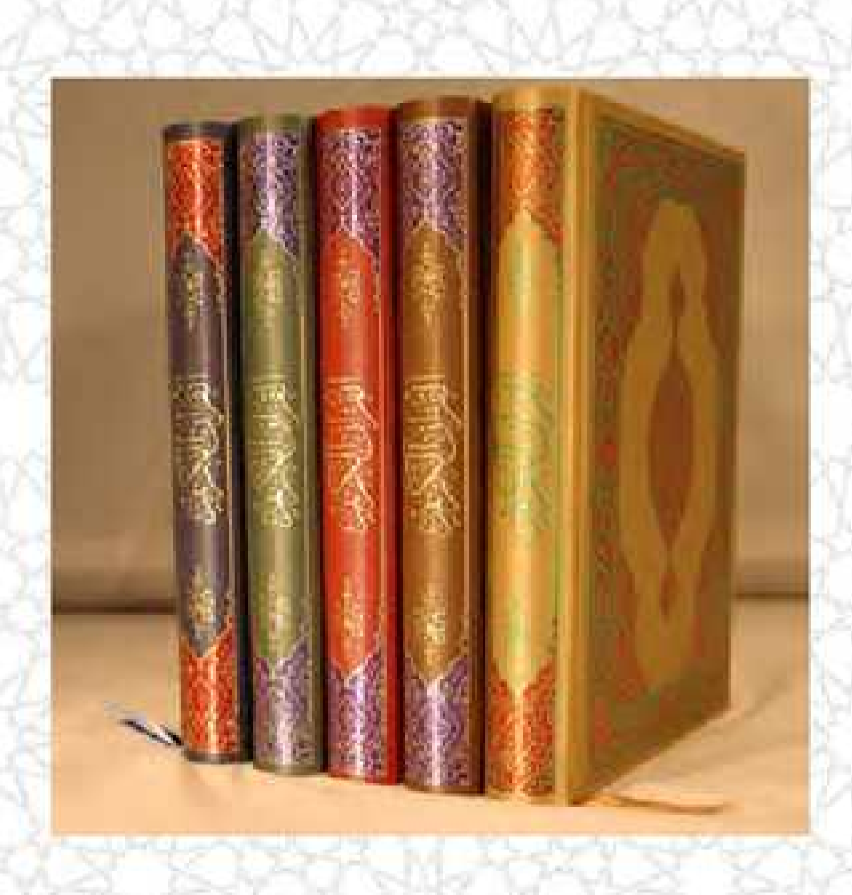
□ أنَّه زيُّ أهل الشَّرِّ والفساد والزعارة[12]، واليوم صار سمة وشعارًا لعبَّاد الشَّياطين، وكذا للطَّائفة الشَّاذة المسماة: «hooligans».

□ أنَّه ظلم للرَّأس، حيث حلق بعضه، وترك بعضه الآخر، وقد أمر الشَّرع بالعدل في الأمور كلِّها، حتَّى في حقِّ الإنسان مع نفسه.

قال الإمام ابن القيِّم رحمه الله في «تحفة المودود» (100 ـ تحقيق الأرناؤوط):

«قال شيخنا (يعني ابن تيمية): وهذا من كمال محبَّة الله ورسوله للعدل؛ فإنَّه أَمَر به حتَّى في شأن الإنسان مع نفسه، فنهاه أن يحلق بعض رأسه ويترك بعضه؛ لأنَّه ظلم للرَّأس، حيث ترك بعضه كاسيًا وبعضه عاريًا، ونظير هذا أنَّه نهى عن الجلوس بين الشَّمس والظِّلِّ؛ فإنَّه ظلم لبعض بدنه، ونظيره نهى أن يمشي الرَّجل في نعل واحدة، بل إمَّا أن ينعلهما أو يحفيهما».

□ أنَّه مضرٌّ بالرَّأس؛ لأنَّ الإنسان إذا حلق بعض رأسه وترك بعضه، فسد مزاجه لاختلاف حال الرَّأس من الحرارة والبرودة، وهما مؤثِّران متضادَّان، كما في نظائره.



المبحث الثَّالث
نصوص الأئمَّة

تقدَّم حكاية الإجماع على تحريم القزع، وهذه نصوص أئمَّة المذاهب:

■ **الحنفيَّة:**

قال ابن عابدين في «الدُّرِّ المختار» (407/6): «ويكره القزع، وهو أن يحلق البعض ويترك البعض قطعًا مقدار ثلاثة أصابع».

■ **المالكيَّة:**

قال أبو الوليد بن رشد في «البيان والتَّحصيل» (370/9): «سئل مالك عن حلاَّق الصِّبيان قصَّة وقَفًا، فقال: ما يعجبني، قلت له: من الجواري والغلمان، فقال: ما يعجبني من الجواري ولا من الغلمان، إن كانوا يريدون أن يدعوا شعره كلَّه فليدعوه، وإن كانوا يريدون أن يحلقوه فيحلقوه كلَّه، وقد كاتبت في ذلك بعض الأمراء، وأمرته أن ينهى عن القصَّة، فسئل عن القصَّة وحدها بلا قفا، فقال مثل قوله في القصَّة والقفا».

■ **الشَّافعيَّة:**

قال النَّووي في «روضة الطَّالبين» (502/2): «يكره القزع، وهو حلق بعض الرَّأس، سواء كان متفرِّقًا أو من موضع واحد».

■ **الحنابلة:**

قال في «المغني» (123/1): «فأمَّا حلق بعض الرَّأس فمكروه، ويسمَّى القزع».

وقال المرداوي في «الإنصاف» (127/1): «ويكره القزع بلا نزاع، وهو أخذ بعض الرَّأس، وترك بعضه،

(9) أخرجه ابن أبي شيبة (25659)، وإسناده صحيح، رجاله رجال الشَّيخين غير عبد الله ابن الحسن، وهو ابن الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وقد وثَّقه ابن معين وأبو حاتم والنَّسائي، وفي لفظ عن ابن معين: ثقة مأمون، انظر «تهذيب الكمال» (417/14).

(10) أخرجه ابن ماجه (3722) عن بريدة بإسناد حسن، وله شاهد عن أبي هريرة وغيره، انظر «الصَّحيحة» (838).

(11) أخرجه البخاري (5856)، ومسلم (2097).

(12) انظر «المفهم» (441/5)، «معالم السُّنن» (211/4)، «عمدة القاري» (90/22).

على الصَّحيح من المذهب، وقاله الإمام أحمد، وعليه جمهور الأصحاب».

■ الظَّاهريَّة:

قال ابن حزم في «المحلَّى» (231/5): «نهى جملة على لسان رسوله ﷺ عن حلق بعض الرَّأس دون بعض، وهو القزع».

المبحث الرابع
تحقيق معنى الكراهة في نصوص الأئمة

قبل أن نبيِّن معنى الكراهة الواردة في نصوص الأئمَّة، لا بدَّ من التَّنبيه أوَّلًا على أنَّ النَّهي الوارد في نصوص الشَّرع، يقتضي تحريم المنهي عنه إلاَّ لقرينة، كما هو مذهب جماهير العلماء[13].

لذا لا يجوز صرف اللَّفظ عن ظاهره، مع عدم وجود قرينة.

أمَّا الكراهة الواردة في نصوص الأئمَّة، فقد جرى كثيرًا على ألسنتهم لفظ «مكروه»، وأرادوا به التَّحريم، إلاَّ أنَّ أتباعهم من المتأخِّرين، حملوه على المعنى الاصطلاحي الحادث، وهو «التَّنزيه» أو «ترك الأولى»، فغلطوا على أئمَّتهم، ووقع بسببه لبس كبير، وسوء فهم لنصوص الشَّارع ونصوص الأئمَّة، وقد أوضح هذا الإمام ابن القيِّم رحمه الله، حيث قال في «إعلام الموقعين» (32/1):

«وقد غلط كثير من المتأخِّرين من أتباع الأئمَّة على أئمَّتهم بسبب ذلك، حيث تورَّع الأئمَّة عن إطلاق لفظ «التَّحريم»، وأطلقوا لفظ «الكراهة»، فنفى المتأخِّرون «التَّحريم» عمَّا أطلق عليه الأئمَّة «الكراهة»، ثمَّ سهل عليهم لفظ «الكراهة»، وخفَّت مؤنته عليهم، فحمله بعضهم على «التَّنزيه»، وتجاوز به آخرون إلى كراهة «ترك الأولى»، وهذا كثير جدًّا في تصرُّفاتهم؛ فحصل بسببه غلط عظيم على الشَّريعة وعلى الأئمَّة» انتهى.

ثمَّ أطال في ضرب الأمثلة على ذلك من أقوال الأئمَّة، حيث أطلقوا لفظ «الكراهة» في موضع تورُّعًا، ونصُّوا على «التَّحريم» في موضع آخر، لكن أتباعهم من المتأخِّرين، حملوه على «التَّنزيه».

أمَّا الكراهة الواردة في نصوص الأئمَّة، فقد جرى كثيرًا على ألسنتهم لفظ «مكروه»، وأرادوا به التَّحريم، إلاَّ أنَّ أتباعهم من المتأخِّرين، حملوه على المعنى الاصطلاحي الحادث، وهو «التَّنزيه» أو «ترك الأولى»، فغلطوا على أئمَّتهم، ووقع بسببه لبس كبير، وسوء فهم لنصوص الشَّارع ونصوص الأئمَّة

المبحث الخامس
أنواع القزع

للقزع أنواع وصور، قال الإمام ابن القيم رحمه الله في «تحفة المودود» (100): «والقزع أربعة أنواع:

■ أن يحلق من رأسه مواضع من ها هنا وها هنا؛ مأخوذ من تقزُّع السَّحاب وهو تقطُّعه.

■ أن يحلق وسطه ويترك جوانبه، كما يفعله شمامسة النَّصارى.

■ أن يحلق جوانبه ويترك وسطه، كما يفعله كثير من الأوباش والسِّفل.

■ أن يحلق مقدَّمه ويترك مؤخَّره، وهذا كلُّه من القزع، والله أعلم».

ومن أنواعه حلق القصَّة والقفا، وهو أن يحلق وسط الرَّأس، ويبقي مقدّمه مفتوحًا مقصوصًا على وجهه، ومؤخّره مسدولاً على قفاه.

ومن أنواعه حلق القفا ـ وهو مؤخّر الرَّأس ـ لمن لم يحلق رأسه، قال المروذي: «سألت أبا عبد الله عن حلق القفا فقال: هو من فعل المجوس، ومن تشبَّه بقوم فهو منهم»[14].

ومن أنواعه: الذّؤابة، وهي النَّاصية تترك في بعض رأس الصَّبيِّ، ويحلق سائره، وقد جاء تفسير القزع في رواية: «أن يحلق رأس الصَّبيِّ، فتترك له ذؤابة»[15]، وفي لفظ: «ولكن القزع أن يترك بناصيته شعر، وليس في رأسه غيره»، وصرَّح الخطَّابي في «معالم السُّنن» (211/4)

(13) انظر «الرِّسالة» للشَّافعي (343)، «العدَّة» (425/2)، «البحر المحيط» (462/2)، «تحقيق المراد في أنَّ النَّهي يقتضي الفساد» للحافظ العلائي (274).

(14) انظر «المغني» (68/1).

(15) أخرجه أبو داود (4194)، وصحَّحه الشَّيخ الألباني في «صحيح أبي داود».

بأنَّ هذا ممَّا يدخل في القزع.

لكنَّه معارض بما رواه أنس بن مالك، قال: «كانت لي ذؤابة، فقالت لي أمِّي: لا أجزها، كان رسول الله ﷺ يمدُّها، ويأخذ بها»[16].

وما رواه زياد بن الحصين، عن أبيه قال: «لما قدم على النَّبيِّ ﷺ بالمدينة، فقال له رسول الله ﷺ: ادن منِّي، فدنا منه، فوضع يده على ذؤابته ثمَّ أجرى يده، وسَمَّت عليه ودعا له»[17].

وجمع بينهما الحافظ، فقال في «الفتح» (365/10): «ويمكن الجمع بأن الذّؤابة الجائز اتِّخاذها ما يفرد من الشَّعر فيرسل ويجمع ما عداها بالضّفر وغيره والَّتي تمنع أن يحلق الرَّأس كلّه ويترك ما في وسطه فيتَّخذ ذؤابة».

وما رواه ابن مسعود رضي الله عنه قال: «كيف تأمروني أقرأ على قراءة زيد بن ثابت بعد ما قرأت من في رسول الله ﷺ بضعًا وسبعين سورة، وإنَّ زيدًا مع الغلمان له ذؤابتان»[18].

وهناك أنواع أخرى، ظهرت حديثًا، مثل أن يحلق جانبيه الأيمن والأيسر، ويترك وسطه من مقدّمه إلى آخره، ويشبه ما يفعله الهنود الحمر.

ومثل حلق غير مرتَّب، ونحو ذلك، بل بلغ الأمر إلى التَّفنُّن في القزع بحسب الموضات المستحدثة، وبعضها أقبح من بعض.

والضَّابط في ذلك كلِّه قوله ﷺ: «احلقوه كلَّه أو اتركوه كلَّه».

■■■

أمَّا حلق القُصَّة ـ بضمِّ القاف، وهي شعر الصّدغين ـ، والقفا، أي ما استرسل من شعر القفا، فليس من القزع، وقد جاء هذا في رواية: «أمَّا القصَّة والقفا فلا بأس بهما للغلام».

وكذا الجزُّ، فلا يدخل في القزع، فقد روى بكر بن محمَّد عن أبيه عن أبي عبد الله وسأله عن القزع؟ قال: «هو أن يحلق بعض الشَّعر ويترك بعض، قلت: والذّؤابة تكرهها؟ قال: إنَّما الحديث، أن يحلق بعض الشَّعر ويترك بعض، فأمَّا إذا جزَّ فليس عندي بمنزلة الحلق، وكأنَّه رخَّص فيه.

وقال: كان (....) له ذؤابة وكأنَّه الَّذي كره الحلق»[19].

وهناك أنواع أخرى، ظهرت حديثًا، مثل أن يحلق جانبيه الأيمن والأيسر، ويترك وسطه من مقدّمه إلى آخره، ويشبه ما يفعله الهنود الحمر. ومثل حلق غير مرتَّب، ونحو ذلك، بل بلغ الأمر إلى التَّفنُّن في القزع بحسب الموضات المستحدثة، وبعضها أقبح من بعض. والضَّابط في ذلك كلِّه قوله ﷺ: «أحلقوه كلَّه أو اتركوه كلَّه».

المبحث السادس تخصيص القزع بالصبيّ

تخصيص النَّهي في الحديث بالصَّبي ليس قيدًا، وإنَّما خرج على الغالب، بل هو عام، يشمل الجارية والرِّجال، وكذا النِّساء، لعموم قوله ﷺ: «النِّساء شقائق الرِّجال»[20].

المبحث السابع مواطن جواز القزع

إذا علمنا تحريم القزع، فإنَّه يباح إذا دعت الضَّرورة أو الحاجة كالمداواة، مثل ضرر برأسه، أو شعر يؤذي عينيه، أو لأجل الحجامة، ونحو ذلك، جاز حلق بعضه.

قال ابن القيِّم رحمه الله في «أحكام أهل الذِّمَّة» (1294/3): «فإن دعت الحاجة إلى ذلك لضرر برأسه أو لاستخراج ضفيرة تؤذي عينيه، جاز حلق بعضه هذا، والأولى في هذه الحال أن يقتصر على ما تندفع به الحاجة أو حلق جميعه، وهذا فيه نظر».

هذا ما تيسَّر لي جمعه من أحكام القزع، والحمد لله ربِّ العالمين، وصلَّى الله على نبيِّنا محمَّد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

■■■

(16) أخرجه أبو داود (4196)، وصحَّحه الحافظ في «الفتح» (365/10)، والشَّيخ الألباني في «صحيح أبي داود».

(17) أخرجه النَّسائي (5065)، وصحَّحه أيضًا الحافظ، والشَّيخ الألباني في «صحيح النَّسائي».

(18) أخرجه النَّسائي (5064)، وقال الحافظ: «وأصله في الصَّحيحين»؛ وصحَّحه أيضًا الشَّيخ الألباني.

(19) انظر «الوقوف والترجُّل من الجامع لمسائل الإمام أحمد بن حنبل» (رقم: 203).

(20) أخرجه أبو داود (236) والتِّرمذي (113) عن عائشة، وصحَّحه الشَّيخ الألباني في «صحيح السُّنن».

عز الدِّين مارير

مرحلة الماجستير بالجامعة الإسلامية ـ المدينة النبوية

أسباب الانحراف عن المتابعة



إنَّ المتتبِّع لتاريخ الأمَّة الإسلاميَّة منذ بزوغ فجر الرِّسالة، ومرورًا بالقرون المفضَّلة، وما بعدها إلى يومنا هذا، يرى بوضوح ابتعاد هذه الأمَّة عن المنهج النَّبوي تدريجيًّا، حتَّى أصبحت السُّنن منكرَة، والبدع مألوفَة، والمتمسِّك بالحقِّ غريبًا.

قال الشَّاطبي رحمه الله:

«وهذه سنَّة الله في الخلق، أنَّ أهل الحقِّ في جنب أهل الباطل قليل لقوله تعالى: ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ١٠٣﴾ [سورة يوسف]، وقوله تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ ١٣﴾ [سورة سبأ]، وليُنْجزَ الله ما وعد به نبيَّه ﷺ من عَوْد وصف الغربة إليه، فإنَّ الغربة لا تكون إلاَّ مع فقد الأهل أو قلَّتهم، وذلك حين يصير المعروف منكرًا والمنكر معروفًا، وتصير السُّنَّة بدعة والبدعة سنَّة، فيقام على أهل السُّنَّة بالتَّثريب والتَّعنيف كما كان أوَّلاً يقام على أهل البدعة...»(1).

وهذه الحالة الَّتي وصلت إليها الأمَّة الإسلاميَّة، ما كانت لتكون إلاَّ لوجود أسباب وعوامل، جعلها الله عز وجل المحرِّك لهذا الانحراف عن النَّهج القويم.

فمن هذه الأسباب:

(1) «الاعتصام» للشَّاطبي (12/1).

أوَّلاً ـ تزيين الشَّيطان:

لقد بَدَتْ عداوةُ إبليسَ اللَّعين لبني آدم منذ أن خُلق آدم عليه السلام، فهو جادٌّ في صرفهم عن الهُدى المستقيم، باذلٌ في ذلك جنده، ناصبٌ لهم شراكَه ومكائدَه، ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ١٦٨﴾ [سورة البقرة].

قال ابن كثير رحمه الله: «... ونهاهم عن اتِّباع خطوات الشَّيطان، وهي طرائقه ومسالكه فيما أضلَّ أتباعَه فيه ...»(1).

وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: «الصِّراط محتضر، يحضُرُه الشَّياطين ينادون: يا عبد الله هَلُمَّ، يا عبد الله هَلُمَّ هذا الطَّريق؛ ليصدُّوا عن سبيل الله، فاعتصموا بحبل الله» قال: «حبل الله هو كتاب الله»(2).

وإنَّ للشَّيطان سبلاً وطرائقَ يسلكُها، ومكائدَ وشُرُك ينصبُها لابن آدم، لإيقاعه في المخالفة، فإن نجا من شَرَك، نَصب له آخر حتَّى يوقعه، إلاَّ مَنْ عصمه الله عز وجل، ولذلك يقول ابن القيِّم رحمه الله: «... ولا يمكن حصر أجناسِ شرِّه ـ أي الشَّيطان ـ فضلاً عن آحادها، إذ كلُّ شرٍّ

(1) «تفسير القرآن العظيم» (478/1).

(2) «السُّنَّة» للمروزي (51)، و«الشَّريعة» للآجري (297/1)، و«الإبانة» لابن بطَّة (298/1).

في العالم فهو السَّبب فيه، لكن ينحصر شرُّه في ستَّة أجناس لا يزال بابن آدم حتَّى ينال منه واحدًا أو أكثر:

- الشَّرُّ الأوَّل: شرُّ الكفر والشِّرك ومعاداة الله ورسوله، فإذا يئس منه من ذلك وكان ممَّن سبق له الإسلام في بطن أمِّه نقله إلى:

- المرتبة الثَّانية من الشَّرِّ: وهي **البدعة**، وهي أحبُّ إليه من الفسوق والمعاصي؛ لأنَّ ضررها في نفس الدِّين، وهو ضرر متعدٍّ، وهو ذنب لا يُتاب منه، فإن أعجزه من هذه المرتبة وكان العبد ممَّن سبقت له من الله موهبة السُّنَّة، ومعاداة أهل البدع والضَّلال نقله إلى:

- المرتبة الثَّالثة من الشَّرِّ: وهي **الكبائر** على اختلاف أنواعها، ولا سيَّما إن كان عالمًا متبوعًا، لينفِّر النَّاس عنه، فإن أعجزه من هذه المرتبة، نقله إلى:

- المرتبة الرَّابعة: وهي **الصَّغائر** الَّتي إذا اجتمعت فربَّما أهلكت صاحبها، فإن أعجزه العبد من هذه المرتبة، نقله إلى:

- المرتبة الخامسة: وهي **إشغاله بالمباحات** الَّتي لا ثواب فيها ولا عقاب، بل عاقبتُها فَوْتُ الثَّواب الَّذي ضاع عليه باشتغاله بها، فإن أعجزه العبد من هذه المرتبة، وكان حافظًا لوقته نقله إلى:

- المرتبة السَّادسة: وهي أن يشغله **بالعمل المفضول عمَّا هو أفضل منه**، ليزيحَ عنه الفضيلة ويفوِّته ثواب العمل الفاضل، فإن أعجزه العبد من هذه المراتب السِّتِّ وأعيا عليه، سلَّط عليه حزبَه من الإنس والجنِّ، بأنواع الأذى والتَّكفير والتَّضليل والتَّبديع والتَّحذير منه، وقصد إخماله وإطفائه، ليشوِّش عليه قلبه، ويشغلَ بحربه فكرَه، وحينئذ يَلبَسُ المؤمنُ لأْمَةَ الحرب ولا يضعُها عنه إلى الموت»[3].

(3) «بدائع الفوائد» (610. 612). باختصار وتصرُّف.

ثانيًا. الجهل بأحكام الدِّين:

كلَّما امتدَّ الزَّمان وبَعُد النَّاس عن آثار الرِّسالة، قلَّ العلم وفشا الجهل، وصار المعروف منكرًا، والمنكر معروفًا، واشتغل النَّاس بعلوم لا فائدة فيها، كعلم الكلام، والمنطق، والفلسفة، مع إهمال ونبذ العلم الشَّرعي ظهريًّا، والدَّعوى بأنَّه رجعيَّة وتخلُّف، وأنَّ العصر فيه تطورٌ وتقدُّم، فلابدَّ إذًا من المواكبة، وهذا مسلك من مسالك الشَّيطان، لصرف النَّاس عن الخير والهدى والنُّور، ونتيجة لذلك قلَّ علماء الشَّريعة، واتَّخذ النَّاس رؤوسًا جهَّالاً فسُئلوا، فأجابوا عن جهل، فضلُّوا وأضلُّوا.

قال النَّبيُّ ﷺ: «**إنَّ الله لاَ يَقْبِضُ العِلْمَ انْتِزَاعًا يَنْتَزِعُهُ مِنَ العِبَادِ وَلَكِنْ يَقْبِضُ العِلْمَ بِقَبْضِ العُلَمَاءِ، حَتَّى إِذَا لَمْ يُبْقِ عَالِمًا اتَّخَذَ النَّاسُ رُؤُوسًا جُهَّالاً فَسُئِلُوا فَأَفْتَوْا بِغَيْرِ عِلْمٍ فَضَلُّوا وَأَضَلُّوا**»[4].

قال المباركفوري: «في الحديث الحثُّ على حفظ العلم، والتَّحذير من ترئيس الجهلة، وفيه أنَّ الفتوى هي الرِّياسة الحقيقيَّة، وذمُّ من يُقدِمُ عليها بغير علم»[5].

وعن أنس رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إنَّ مِنْ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ أَنْ يُرْفَعَ العِلْمُ وَيَكْثُرَ الجَهْلُ...**»[6] الحديث.

وعن أبي الدَّرداء رضي الله عنه قال: كنَّا مع رسول الله ﷺ، فشخص ببصره إلى السَّماء ثمَّ قال: «**هَذَا أَوَانُ يُخْتَلَسُ العِلْمُ مِنَ النَّاسِ حَتَّى لاَ يَقْدِرُوا مِنْهُ عَلَى شَيْءٍ**»، فقال زياد بن لبيد الأنصاري: كيف يختلس منَّا وقد قرأنا القرآن، فوالله لنقرَأنَّه ولنُقْرِئَنَّه نساءَنا وأبناءنا، فقال: **ثكلتك أمُّك يا زياد، إن كنت لأعدُّك من فقهاء أهل المدينة، هذه التَّوراة والإنجيل عند اليهود والنَّصارى، فماذا تغني عنهم؟** قال جبير: فلقيت عبادة بن الصَّامت قلتُ: ألا تسمع إلى ما يقول أخوك أبو الدَّرداء؟ فأخبرته بالَّذي قال أبو الدَّرداء، قال: صدق أبو الدَّرداء، إن شئتَ لأحدِّثنَّك بأوَّل علم يرفع من النَّاس؟ الخشوع، يوشك أن تدخل مسجد جماعة فلا ترى فيه رجلاً خاشعًا»[7].

وكتب عمر بن عبدالعزيز إلى أبي بكر بن حزم: «انظر ما كان من حديث رسول الله ﷺ، فاكتبه، فإنِّي خفت دُرُوس العلم وذهابَ العلماء، ولا تقبل إلاَّ حديث رسول الله ﷺ، ولتُفشُوا العلم، ولتَجلِسُوا حتَّى يُعلَّم من لا يعلم، فإنَّ العلم لا يهْلِك حتَّى يكون سِرًّا»[8].

قال ابن القيِّم في بيان أسباب وقوع الشِّرك: «منها: الجهل بحقيقة ما بعث الله به رسوله، بل جميع الرُّسل، من تحقيق التَّوحيد، وقطع أسباب الشِّرك، فقلَّ نصيبهم من ذلك، ودعاهم الشَّيطان إلى الفتنة، ولم يكن عندهم من العلم ما يبطل دعوته، فاستجابوا له بحسب ما عندهم من الجهل، وعُصِمُوا بقدر ما معهم من العلم»[9].

(4) البخاري (100)، ومسلم (2673).
(5) «تحفة الأحوذي» للمباركفوري (7/389).
(6) رواه البخاري (5231)، ومسلم (2671).

(7) رواه التِّرمذي (2653)، والدَّارمي (246) وصحَّحه الألباني، انظر: «اقتضاء العلم العمل» (89).
(8) البخاري، كتاب العلم، باب: كيف يقبض العلم.
(9) «إغاثة اللَّهفان» لابن القيِّم (281).

ثالثًا. اتِّباع الهوى:

إنَّ كلَّ من أعرض عن الكتاب والسُّنَّة واستقى من غيرهما، فقد اتَّبع هواه قال تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ ۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٥٠﴾﴾ [سورة القصص]، ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا ﴿٢٨﴾﴾ [سورة الكهف].

قال ابن القيِّم:

«فقسَّم النَّاس إلى مستجيبين للرَّسول، ومتبِّع هواه، فمن ترك استجابته إذا ظهرت له سنَّة، وعدل عنها إلى خلافها فقد اتَّبع هواه»[10]، ثمَّ قال: «فقسَّم الأمر إلى أمرين لا ثالث لهما: إمَّا الاستجابة لله والرَّسول وما جاء به، وإمَّا اتِّباع الهوى، فكلُّ ما لم يأت به الرَّسول فهو من الهوى»[11].

وقال التَّيمي: «قال أهل السُّنَّة: لا نرى أحدًا مال إلى هوى، أو بدعة إلاَّ وجدتَّه متحيِّرًا ميِّت القلب، ممنوعًا من النُّطق بالحقِّ»[12].

(10) «الصواعق المرسلة» (1526/4).
(11) «إعلام الموقعين» (37/1. 38).
(12) «الحجَّة في بيان المحجَّة» للتَّيمي (431/2).

فمن ترك استجابته إذا ظهرت له سنَّته، وعدل عنها إلى خلافها فقد اتَّبع هواه

رابعًا. دعاة الباطل:

لقد شمَّر أعداء الإسلام وأهل الباطل عن ساعد الجدِّ منذ فجر الرِّسالة، في صرف المسلمين عن دينهم، بشتَّى الوسائل، فبثُّوا فيهم البدع والخرافات، وقيَّضوا لها دعاة، إمَّا متواطئين أو جهلة، ليكونوا اليد المباشرة في ترويج هذه البدع، كما هو معروف في التَّاريخ كابن سبأ، والجهم، والجعد، والمريسي، وابن عربي...، وغيرهم ممَّن عُرف بالمخالفة لمنهج أهل السُّنَّة، إمَّا في مصدر التَّلقِّي، كـ«العقل، والمنامات، والحكايات المكذوبة»، وإمَّا في المخالفة في الاستدلال بالرِّوايات الضَّعيفة، أو المكذوبة الموضوعة.

وقال أبو نصر السِّجزي: «كلُّهم أئمَّة ضلالة، يدعون النَّاس إلى مخالفة السُّنَّة وترك الحديث، وإذا خاطبهم من له هَيْبةٌ وحشْمة من أهل الاتِّباع قالوا: الاعتقاد ما تقولونه، وإنَّما نتعلَّم الكلام لمناظرة الخصوم؛ والَّذي يقولونه كذب، وإنَّما يستترون بهذا لئلاَّ يُشنِّع عليهم أصحاب الحديث»[13].

قال التَّيمي: «ورأينا قومًا تنكَّبوا معرفتها واتِّباعها . أي السنن .، وطعنوا فيها وزهَّدوا النَّاس في جمعها ونشرها، وضربوا لها ولأهلها أسوأ الأمثال»[14].

يقول ابن القيِّم في بيان أسباب الشِّرك:

«ومنها: أحاديث مكذوبة مختلقة وضعها أشباه عبَّاد الأصنام من المقابرية على رسول الله ﷺ تناقض دينه، وماجاء به كحديث: «إِذَا أَعْيَتْكُمُ الأُمُورُ فَعَلَيْكُمْ بِأَصْحَابِ القُبُورِ»[15].

ومنها: حكايات حُكِيَت لهم عن تلك القبور، أنّ فلانًا استغاث بالقبر الفلاني في شدَّة فخلص منها...»[16].

(13) «رسالة السِّجزي إلى أهل زبيد» لأبي نصر السِّجزي (332. 346).
(14) «الحجَّة في بيان المحجَّة» للتَّيمي (385/2 . 386).

قال التَّيمي: «ورأينا قومًا تنكَّبوا معرفتها واتِّباعها . أي السنن .، وطعنوا فيها وزهَّدوا النَّاس في جمعها ونشرها، وضربوا لها ولأهلها أسوأ الأمثال»

خامسًا . تقديم العقل وتحكيمه على الشَّرع:

لقد أدَّت ترجمة الكتب اليونانيَّة، والاشتغال بها، إلى التَّأثُّر بما فيها من العقليَّات، مع عدم وجود رصيد علميٍّ كاف لدى المتشغلين بها، ليحميهم من الشُّبه الَّتي كانت المحرِّكَ الرَّئيس لموقفهم اتِّجاه النُّصوص الشَّرعيَّة، فنتج عنه تحكيم العقل وجعله الميزان الصَّحيح في قبول الأخبار أو ردِّها، وجعلوا له ضوابط وقواعد يوجِّهون من خلالها معاني النُّصوص.

(15) قال شيخ الإسلام: «فهذا الحديث كذب مفترى على النَّبيِّ ﷺ بإجماع العارفين بحديثه، لم يروه أحد من العلماء بذلك، ولا يوجد في شيء من كتب الحديث المعتمدة» «قاعدة جليلة في التَّوسل والوسيلة» (231).
(16) «إغاثة اللَّهفان» لابن القيِّم (281).

يقول شيخ الإسلام ابن تيميَّة رحمه الله في ردِّه على القانون الكلِّي الَّذي وضعه الرَّازي لأتباعه:

«ومثل هذا القانون الَّذي وضعه هؤلاء، يضع كلُّ فريق لأنفسهم قانونًا فيما جاءت به الأنبياء عن الله فيجعلون الأصل الَّذي يعتقدونه ويعتمدونه هو ما ظنُّوا أنَّ عقولَهم عرفته، ويجعلون ما جاءت به الأنبياء تبعًا له، فما وافق قانونهم قبلوه، وما خالفه لم يتَّبعوه»[17].

ويقول الشَّاطبي في بيان وجوه المخالفات:

«ومنها: ...ردُّهم للأحاديث الَّتي جاءت غير موافقة لأغراضهم ومذاهبهم، ويدَّعون أنَّها مخالفة للعقول، وغير جارية على مقتضى الدَّليل فيجب ردُّها»[18].

وقال التَّيمي:

«ولا نعارض سنَّة النَّبيِّ ﷺ بالمعقول؛ لأنَّ الدِّين إنَّما هو الانقياد والتَّسليم دون الرَّدِّ إلى ما يوجبه العقل؛ لأنَّ العقل ما يؤدِّي إلى قبول السُّنَّة، فأمَّا ما يؤدِّي إلى إبطالها فهو جهل لا عقل»[19].

(17) «درء تعارض العقل والنَّقل» لابن تيميَّة (1/6).
(18) «الاعتصام» للشَّاطبي (2/12 ـ 23).
(19) «الحجَّة في بيان المحجَّة» للتَّيمي (2/509).

سادسًا. التَّعصُّب للآراء والغلوُّ في الرِّجال:

قابلت الطَّوائفَ العقليَّة طوائف جمَّدت العقلَ، وعطَّلته عن عمله، وجعلته تابعًا ـ من غير نظر ـ لما يقوله المشايخ والأئمَّة، كما هو دين الصُّوفيَّة، حتَّى إنَّهم قالوا لابدَّ أن يكون المريد أمام الشَّيخ كالميِّت بين يدي المغسِّل، وكما هو الحال عند الرَّافضة ـ أخزاهم الله ـ حيث إنَّهم جعلوا الدِّين هو ما جاء عن الأئمَّة ـ كذبًا وزورًا ـ، وممَّا زاد الطِّين بِلَّة هو الغلوُّ فيهم، حتَّى رفعوهم إلى رتبة الأنبياء، بل إلى رتبة الإلهيَّة ﴿ظُلُمَٰتُۢ بَعۡضُهَا فَوۡقَ بَعۡضٍ إِذَآ أَخۡرَجَ يَدَهُۥ لَمۡ يَكَدۡ يَرَىٰهَاۗ وَمَن لَّمۡ يَجۡعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورٗا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ٤٠﴾ [النور].

وكلٌّ من الطَّائفتين ـ العقليَّة والمقابلة لها ـ مجانبة للصَّواب؛ لأنَّ العقل الصَّريح لا يخالف النَّقل الصَّحيح، وليس هناك شخص يُتعصَّب له لذاته إلَّا رسول الله ﷺ، أمَّا مَن دونه فكلٌّ يؤخذ من قوله ويردُّ، ويتعصَّب للحقِّ أينما وُجد؛ لأنَّ الله ـ جلَّ وعلا ـ تعبَّدنا بدينه لا بالرِّجال قال تعالى: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗا﴾ [المائدة: 3].

ومن خلال ما سبق، يتبيَّن لنا أنَّ الله تعالى كما أمرنا بتوحيد المرسِل، كذلك أمرنا بتوحيد المرسَل، وأن لا نَحيد عن نهجه لا يَمْنَة ولا يَسْرة، وأن نلتزم بما جاء عن الله وعن رسوله ﷺ، دون إفراط ولا تفريط، على هدىً بين ضلالتين، وأن نقتفي أثر سلفنا الصَّالح من الصَّحابة والتَّابعين والأئمَّة من بعدهم ممَّن شُهد له بالإمامة، وأن نكونَ لسلفنا خيرَ خلف، كما كانوا هم لنا خيرَ سلف، وأن نجتنب كلَّ ما يَحيدُ بنا عن هذه الشَّريعة الصَّافية، ويباعدَنا عنها، وأن نجتهد في تحصيل العلم الشَّرعي، لنَنْقُضَ به الجهلَ العمي، ونلازمَ الأئمَّة العلماء المعروفين بالسُّنَّة والاتِّباع، ونجتنب البدع والابتداع، ونسأل الله تعالى أن يحيينا على السُّنَّة، وأن يميتنا عليها، ويجمعنا مع أهلها يوم القيامة، ويجعلنا في حزب نبيِّنا محمَّد ﷺ، ويجعلنا وإيَّاكم ممَّن تحيا بهم السُّنن، وتموت بهم البدع، وتقوى بهم قلوب أهل الحقِّ، وتنقمع به نفوس أهل الأهواء بمنِّه وكرمه.

وصلَّى الله وسلَّم على نبيِّنا محمَّد وعلى آله وصحبه أجمعين.



محبَّة أصحاب رسول الله ﷺ وموقف الإمام مالك من الرَّافضة الَّذين يسبُّونهم

د. سعود بن عبد العزيز الدعجان
الجامعة الإسلامية بالمدينة النبوية

الصَّحابة رضي الله عنهم خير هذه الأمَّة بعد النَّبيِّ ﷺ، وقد أثنى الله عز وجل عليهم في كثير من الآيات:

قال تعالى: ﴿وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ [التوبة : 100].

وقال تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَٰئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِن بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ﴾ [الحديد : 10].

وقال عز وجل: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا﴾ [الفتح : 29].

وقال سبحانه: ﴿لَّقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ [الفتح : 18].

وغير ذلك من الآيات الدالة على عظم فضلهم وعظم درجتهم عند الله.

وكما أن الله أثنى عليهم في كتابه أثنى عليهم رسوله ﷺ في أحاديث كثيرة منها:

قوله ﷺ: «**خَيْرُ أُمَّتي قَرْنِي، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ...**»[1].

وقوله ﷺ: «**لاَ يَدْخُلُ النَّارَ. إنْ شَاءَ الله. مِنْ أَصْحَابِ الشَّجَرَةِ أَحَدٌ الَّذِينَ بَايَعُوا تَحْتَهَا**»[2].

وقوله ﷺ: «**لاَ تَسُبُّوا أَصْحَابي، فلَوْ أَنَّ أَحَدَكُمْ أَنْفَقَ مِثْلَ أُحُد ذَهَبًا مَا بَلَغَ مُدَّ أَحَدِهِمْ وَلاَ نَصِيفَهُ**»[3].

وقوله ﷺ: «**النُّجُومُ أَمَنَةٌ للسَّمَاءِ، فَإِذَا ذَهَبَت النُّجُومُ أَتَى السَّمَاءَ مَا توعَد، وَأَنَا أَمَنَةٌ لأَصْحَابي، فَإِذَا ذَهَبْتُ أَتَى أَصْحَابي مَا يُوعَدُونَ، وأَصْحَابي أَمَنَةٌ لأُمَّتي، فَإِذَا ذَهَبَ أَصْحَابي أَتَى أُمَّتي مَا يُوعَدُونَ**»[4].

وغير ذلك من الأحاديث الَّتي جاءت في تفضيل أفراد منهم.

وقد ذهب السَّلف إلى ما دلَّت عليه هذه النُّصوص من الإيمان بفضلهم ومحبَّتهم، وحماية أعراضهم أن ينالها أحد، وعدم الخوض فيما شجر بينهم، وتحريم سبِّهم أو شتمهم.

ومنهم الإمام مالك رحمه الله؛ فقد نقل ابن كثير عند قوله تعالى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا﴾ [الفتح : 29]، عن الإمام مالك فضلهم وعلوَّ درجتهم، فقال: «وقال مالك رحمه الله: «بلغني أنَّ النَّصارى كانوا إذا رأوا الصَّحابة الَّذين فتحوا الشَّام يقولون: والله لهؤلاء خير من الحواريِّين فيما بلغنا».

الرَّافضة وموقف الإمام مالك منهم

الرَّافضة: فرقة من الشِّيعة ظهرت وعُرفت في أواخر خلافة هشام بن عبد الملك، سنة إحدى وعشرين، أو اثنتين وعشرين ومائة.

ومن عقائدهم الفاسدة:

. القول بأحقِّيَّة عليٍّ رضي الله عنه بالإمامة والخلافة، وهذا سبب تبرُّئهم من أبي بكر وعمر رضي الله عنهما.

. تكفير جلِّ أصحاب الرَّسول ﷺ، وجواز سبِّهم والقول

(1) رواه البخاري (3650) ومسلم (2533).
(2) رواه مسلم (2496).
(3) رواه البخاري (3673)، ومسلم (2540).
(4) رواه مسلم (2531).

بردَّتهم، ووجوب التَّبرُّؤ من الشَّيخين.

ـ القول بالتَّقيَّة: ومعناها أن يظهر ما لا يبطن، ويدَّعون أنَّ سكوت عليٍّ رضي الله عنه عن المطالبة بأحقِّيَّته بالإمامة كان تقيَّة.

ـ الاعتقاد بأنَّ القرآن الكريم الموجود بأيدي المسلمين ناقص ومحرَّف.

هذه بعض أصولهم الَّتي يعتقدونها، ولهم غير ذلك كثير على اختلاف فيما بين فرقهم[5].

قال ابن بطَّة: «وأمَّا الرَّافضة، فأشدُّ النَّاس اختلافًا وتباينًا وتطاعنًا، فكلُّ واحد منهم يختار مذهبًا لنفسه يلعن من خالفه عليه، ويكفِّر من لم يتَّبعه...، ثمَّ ذكر بعض ما يتَّفقون عليه من العقائد، ثمَّ قال: «ولولا ما نؤثره من صيانة العلم الَّذي أعلى الله أمره وشرَّف قدره، ونزَّهه أن يخلط به نجاسات أهل الزَّيغ وقبيح أقوالهم ومذاهبهم، الَّتي تقشعرُّ الجلود من ذكرها، وتجزع النُّفوس من استماعها، وينزِّه العقلاء ألفاظهم وأسماعهم عن لفظها، لذكرتُ من ذلك ما فيه عبرةٌ للمعتبرين، ولكنَّه قد روي عن طلحة بن مصرِّف رحمه الله قال: «لولا أنِّي على طهارة لأخبرتكم بما تقوله الرَّوافض»[6].

وكلُّ ما يعتقده الرَّوافض لا يستندون فيه إلى القرآن، أو إلى السُّنَّة، أو إلى الإجماع، بل عمدتهم في ذلك الكذب والنِّفاق الَّذي يسمُّونه تقيَّة.

قال شيخ الإسلام: «فإنَّ الرَّافضة في الأصل ليسوا أهلَ علم وخبرة بطريق النَّظر والمناظرة، ومعرفة الأدلَّة وما يدخل فيها من المنع والمعارضة، كما أنَّهم من أجهل النَّاس بمعرفة المنقولات والأحاديث والآثار، والتَّمييز بين صحيحها وضعيفها، وإنَّما عمدتهم في المنقولات على تواريخ منقطعة الإسناد، وكثير منها من وضع المعروفين بالكذب، بل وبالإلحاد، وعلماؤهم يعتمدون على نقل مثل أبي مِخْنف لوط بن يحيى[7]، وهشام بن محمَّد ابن السَّائب[8]، وأمثالهما من المعروفين بالكذب عند أهل العلم، مع أنَّ أمثال هؤلاء هم من أجلِّ من يعتمدون عليه في النَّقل، إذ كانوا يعتمدون على من هو في غاية الجهل والافتراء، ممَّن لا يذكر في الكتب، ولا يعرفه أهل العلم بالرِّجال.

وقد اتَّفق أهل العلم بالنَّقل والرِّواية والإسناد على أنَّ الرَّافضة أكذب الطَّوائف، والكذب فيهم قديم، ولهذا كان أئمَّة الإسلام يعلمون امتيازهم بكثرة الكذب»[9].

قال أشهب بن عبد العزيز: سئل مالك عن الرَّافضة فقال: «لا تكلِّمهم ولا ترو عنهم فإنهم يكذبون»[10].

سبُّ الصَّحابة رضي الله عنهم وشتمهم وموقف الإمام مالكٍ منه

تقدَّم الكلام على وجوب محبَّة الصَّحابة، والتَّرضِّي عنهم، والاعتراف بفضلهم، والتَّأسِّي بهم؛ لأنَّهم أصحاب رسول الله ﷺ، فمحبَّتهم من محبَّته، وبغضهم من بغضه، ولذلك جاءت النُّصوص الكثيرة من الكتاب والسُّنَّة الدَّالَّة على تحريم سبِّهم وشتمهم، والوعيد لمن فعل ذلك:



(5) راجع «مقالات الإسلاميِّين»، و«التَّنبيه والرَّدُّ على أهل البدع» للملطي، والفرق بين الفرق» للبغدادي، و«الملل والنِّحل» للشِّهرستاني.

(6) «الإبانة الكبرى» (2/556).

(7) أبو مخنف لوط بن يحيى السري، قال ابن عدي: «شيعي محترق».. وقال الذَّهبي: «إخباري تالف لا يوثق به. توفي سنة 157هـ. «الكامل» لابن عدي (6/2110)، و«الميزان» للذَّهبي (3/419ـ420).

(8) قال ابن عساكر: «رافضيٌّ ليس بثقة مات سنة 204هـ»، «الميزان» للذَّهبي (4/304ـ305).

(9) «منهاج السُّنَّة» (1/58ـ60)، وانظر: «الفصل» لابن حزم (4/194ـ180).

(10) رواه ابن حاتم كما في «منهاج السُّنَّة» (1/60).

أمَّا من الكتاب:

قوله تعالى: ﴿وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا﴾ [الحجرات: 12]، وأدنى أحوال السَّابِّ أن يكون مغتابًا.

وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٥٨﴾﴾ [سورة الأحزاب].

وغير ذلك من الآيات.

وأمَّا من السُّنَّة:

- فعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا تَسُبُّوا أَصْحَابي، لا تسبوا أصحابي، فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِه لَوْ أَنَّ أَحَدَكُمْ أَنْفَقَ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَبًا مَا أَدْرَكَ مُدَّ أَحَدِهِمْ وَلَا نَصِيفَهُ**»[11].

- وعن عطاء بن أبي رباح - مرسلاً - قال: قال النَّبيُّ ﷺ: «**مَنْ سَبَّ أَصْحَابي فَعَلَيْه لَعْنَةُ الله**»[12].

- وعن عائشة رضي الله عنها قالت: «أمروا أن يستغفروا لأصحاب النبي ﷺ فسبُّوهم»[13].

وقد جاء عن الإمام مالك رحمه الله ما يدلُّ على هذا المعنى؛ من تعظيم سبِّ الصَّحابة وشتمهم، وكراهة الإقامة في المكان الَّذي يحصل فيه سبٌّ أو شتم لهم، فعن أشهب بن عبد العزيز قال: قال مالك: «لا تنبغي الإقامة بأرضٍ يكون فيها العمل بغير الحقِّ والسَّبِّ للسَّلف»[14].

وله في الحكم على من سبَّ الصَّحابة رضي الله عنهم روايتان:

الأولى: وهي المشهورة عنه:

أ. أنَّ من شتم النَّبيَّ ﷺ قُتل، ومن شتم أصحابه أدِّب[15].

ب - وقال أيضًا: «من شتم أحدًا من أصحاب النَّبيِّ ﷺ؛ أبا بكر، أو عمر، أو عثمان، أو معاوية، أو عمرو بن العاص، فإن قال: كانوا على ضلال وكُفر، قُتل، وإن شتمهم بغير هذا من مشاتمة النَّاس نُكِّلَ نكالاً شديدًا»[16].

جـ - وقال هشام بن عمَّار: قال مالك: «من سبَّ أبا بكر جُلِدَ، ومن سبَّ عائشة قُتِلَ، قيل له: لمَ؟ قال: من رماها فقد خالف القرآن؛ لأن الله تعالى قال: ﴿يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَن تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧﴾﴾ [سورة النور]، فمن عاد لمثله فقد كفر»[17].

الثَّانية: تكفير من سبَّ الصَّحابة رضي الله عنهم:

- قال أبو عروة - رجل من ولد الزُّبير: كنَّا عند مالك بن أنس فذكروا رجلاً ينتقص أصحاب رسول الله ﷺ، فقرأ مالكٌ هذه الآية: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ ۚ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا ۖ سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ﴾ [الفتح: 29]، فقال مالك: «من أصبح في قلبه غيظٌ على أحد من أصحاب رسول الله ﷺ فقد أصابته الآية»[18].

- وقال ابن كثير: «ومن هذه الآية انتزع الإمام مالك رحمه الله في رواية عنه بتكفير الرَّوافض الَّذين يبغضون الصَّحابة رضي الله عنهم، قال: لأنَّهم يغيظونهم ومن غاظ الصَّحابة رضي الله عنهم فهو كافر لهذه الآية، ووافقه طائفة من العلماء رضي الله عنهم على ذلك»[19].

- قال القرطبي: «لقد أحسن مالكٌ في مقالته، وأصاب في تأويله، فمن نقص واحدًا منهم أو طعن عليه في روايته فقد ردَّ على الله ربِّ العالمين، وأبطل شرائع المسلمين»[20].

- وقال الهيتمي مثل قول ابن كثير، وزاد: «وهو مأخذ حسن يشهد له ظاهر الآية»[21]، وذكر موافقة الشَّافعي وجماعة من الأئمَّة لمالك في القول بتكفيرهم.

وقال أحمد بن حنبل: «قال مالك رحمه الله: «الَّذي يشتم أصحاب النَّبيِّ ﷺ ليس له سهم، أو قال نصيب في الإسلام»[22].

وفي رواية: عن معن بن عيسى قال: سمعت مالكًا يقول: «من سبَّ أصحاب رسول الله ﷺ فليس له في الفيء حقٌّ، يقول الله عز وجل: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا﴾ [الحشر: 8] الآية، هؤلاء أصحاب رسول الله ﷺ الذين هاجروا معه، ثمَّ قال: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ﴾ [سورة الحشر] الآية، هؤلاء الأنصار، ثمَّ قال: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِن بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ﴾

---

(11) البخاري (3673)، ومسلم (2540).

(12) رواه ابن أبي عاصم في «السُّنَّة» (1001)، قال الألباني في «الصحيحة» (2340): «إسناد مرسل صحيح» (2/483).

(13) رواه مسلم (3022).

(14) ذكره ابن عبد الهادي في «إرشاد السَّالك» (54).

(15) انظر: «الصَّارم المسلول» (578).

(16) «الشِّفا» (2/1108)، «مناقب مالك» للزَّواوي (143)

(17) «تفسير القرطبي» (12/205)، «الشِّفا» (2/1109)، «الصَّارم المسلول» (566)، «مناقب مالك» للزَّواوي (144).

(18) رواه أبو نعيم في «الحلية» (6/327)، وذكره كلٌّ من: القرطبي في «تفسيره» (16/296 - 297)، وابن كثير في «تفسيره» (4/204)، والبغوي في «تفسيره» (4/207).

(19) «تفسير ابن كثير» (4/204).

(20) «تفسير القرطبي» (12/297).

(21) «الصَّواعق المحرقة» (210).

(22) رواه الخلَّال في «السُّنَّة» (493)، وابن أبي زمنين في «أصول السُّنَّة» رقم (191)، وذكره ابن بطَّة في «الإبانة الصُّغرى» ص(162).

[الحشر : 10] فالفيء لهؤلاء الثَّلاثة؛ فمن سبَّ أصحاب رسول الله ﷺ فليس من هؤلاء الثلاثة ولا حق له في الفيء»[23].

ـ عن عبد الله بن سَوَّار العنبري قال: قال مالك: «من تنقَّص أحدًا من أصحاب رسول الله ﷺ، أو كان في قلبه عليهم غلٌّ، فليس له حقٌّ في فيء المسلمين، ثمَّ تلا قوله تعالى: ﴿مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ﴾ حتى أتى قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا﴾ [الحشر : 10]، قال: «فمن تنقَّصهم أو كان في قلبه غلٌّ، فليس له في الفيء حقٌّ»[24].

قال ابن كثير: «ما أحسن ما استنبط الإمام مالك رحمه الله من هذه الآية الكريمة؛ أنَّ الرَّافضي الَّذي يسبُّ الصَّحابة ليس له في مال الفيء نصيب، لعدم اتِّصافه بما مدح الله به هؤلاء في قولهم: ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠﴾﴾ [الحشر : 10]»[25]، ثمَّ ذكر قول عائشة رضي الله عنها أنَّها قالت: «أمروا بالاستغفار لأصحاب رسول الله ﷺ فسبُّوهم، ثمَّ قرأت هذه الآية: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ﴾ [الحشر : 9]»[26].

وقال القرطبيُّ عن هذه الآية: «هذه الآية دليل على وجوب محبَّة الصَّحابة، لأنَّه جعل لمن بعدهم حظًّا في الفيء، ما أقاموا على محبَّتهم، وموالاتهم، والاستغفار لهم، وأنَّ من سبَّهم أو واحدًا منهم، أو اعتقد فيه شرًّا، إنَّه لا حقَّ له في الفيء، روي ذلك عن مالك وغيره»[27].

ـ وقال مصعب الزُّبيري وعبد الله بن نافع: «دخل هارون المسجد، فركع ثمَّ أتى قبر النَّبيِّ ﷺ، فسلَّم عليه، ثمَّ أتى مجلس مالك، فقال: السَّلام عليك ورحمة الله وبركاته»، قال له مالك: «وعليك السَّلام ـ يا أمير المؤمنين ـ ورحمة الله وبركاته»، ثمَّ قال لمالك: «هل لمن سبَّ أصحاب رسول الله ﷺ في الفيء حقٌّ؟»، قال: «لا، ولا كرامة ولا مسرَّة»، قال: «من أين قلت ذلك؟»، قال: «قال الله: ﴿لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ﴾ [الفتح : 29] فمن عابهم، فهو كافر ولا حقَّ لكافر في الفيء»[28].

وقد جاء عن الإمام مالك رحمه الله بيان علَّة أخرى في تكفير الرَّوافض، وهو أنَّ سبَّهم والقدح فيهم كسبِّ رسول الله ﷺ والقدح فيه، حيث قال: «إنَّما هؤلاء قوم أرادوا القدح في النَّبيِّ ﷺ فلم يمكنهم ذلك، فقدحوا في أصحابه حتَّى يقال: رجل سوء كان له أصحاب سوء، ولو كان رجلاً صالحًا لكان أصحابه صالحين، أو كما قال»[29].

موقف مالك من سبِّ أمَّهات المؤمنين زوجات الرَّسول ﷺ رضي الله عنهنَّ

اختلف العلماء في حكم ذلك، هل حكم سبِّهنَّ يكون كالحكم في سبِّ سائر الصَّحابة رضي الله عنهم أو يكون كحكم من سبَّ الرَّسول ﷺ؛ لأنَّ فيه أذًى للنَّبيِّ ﷺ؟

فأمَّا الحكم في عائشة أمِّ المؤمنين رضي الله عنها، فيرى الإمام مالك أنَّ من سبَّها يقتل؛ لأنَّه مخالفة للقرآن، كما تقدَّم أنَّه قال: «مَنْ سبَّ أبا بكر جلد، ومن سبَّ عائشة قتل، قيل له لم؟ قال: «من رماها فقد خالف القرآن؛ لأنَّ الله تعالى يقول: ﴿يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُوا۟ لِمِثْلِهِۦٓ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧﴾﴾ [سورة النور]، فمن عاد لمثله فقد كفر».

قال القاضي: «ومعنى هذا ـ والله أعلم ـ أنَّ الله لما عظم سبَّها كما عظَّم سبَّه، وكان سبُّها سبًّا لنبيِّه، وقرن سبَّ نبيِّه وأذاه بأذاه تعالى، وكان حكم مؤذيه تعالى القتل، كان مؤذي نبيِّه كذلك كما قدَّمناه»[30].

ومن العلماء من قيَّد الحكم بالكفر والقتل على قذف عائشة رضي الله عنها فيما برَّأها الله منه، نقل شيخ الإسلام عن القاضي أبي يعلى أنَّه قال: «مَنْ قذف عائشة رضي الله عنها بما برَّأها الله منه كفر بلا خلاف»، وقد حكى الإجماع على هذا غير واحد، وصرَّح غير واحد من الأئمَّة بهذا الحكم[31].

(23) رواه اللالكائيُّ في «اعتقاد أهل السُّنَّة» (1268/7 ـ 1269)، وذكره القاضي عياض في «الشفا» (111/2)، و«ترتيب المدارك» (46/2 ـ 47).

(24) رواه أبو نعيم في «الحلية» (327/6)، وذكره البغوي في «تفسيره» (321/4).

(25) «تفسير ابن كثير» (339/4).

(26) رواه ابن أبي حاتم كما في «تفسير ابن كثير» (339/4)، وهو في «صحيح مسلم» بدون ذكر الآية (3022).

(27) «تفسير القرطبي» (32/18).

(28) ذكره القاضي في «ترتيب المدارك» (46/2 ـ 47).

(29) «الصَّارم المسلول» (580).

(30) «الشِّفاء» (1110/2).

(31) «الصَّارم المسلول» (566)، انظر: «تفسير ابن جرير» (103/18 ـ 104).

تحذير الإخوان من هجران القرآن

نجيب جلواح

أنزل الله تعالى على سيِّد الأنبياء والمرسلين ﷺ خير كتبه وأعظمها ـ القرآن الكريم ـ؛ فيه الهدى والنُّور: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ﴾ [الشورى: 52].

وأمر الله تعالى عباده أنْ يتمسَّكوا به ليهتدوا، وإلاَّ كانوا في ضلال مبين، فقال: ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ ۚ﴾ [آل عمران: 103].

وحبلُ الله الممدود من السَّماء إلى الأرض: هو القرآن العظيم، وبه فسَّره رسولُنا الكريم ﷺ؛ فعن زيد بن أرقم ـ مرفوعًا ـ: **«كِتَابُ اللهِ ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ هُوَ حَبْلُ اللهِ؛ مَنِ اتَّبَعَهُ كَانَ عَلَى الهُدَى، وَمَنْ تَرَكَهُ كَانَ عَلَى ضَلاَلَةٍ»**[1].

ولمَّا هجر القومُ كتابَ الله، وأعرَضوا عمَّا فيه من الهدى، شكاهم نبيُّنا ﷺ إلى ربِّه، فقال تعالى ـ حاكيًا قولَه ـ: ﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُوا۟ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا ﴿٣٠﴾﴾ [سورة الفرقان].

وعبَّر عن قريش بالقَوم؛ فقال: ﴿إِنَّ قَوْمِى﴾: زيادةً في تشنيع صنيعهم معه؛ لأنَّ من شأنِ قومِ الرَّجُلِ أنْ يوافِقوه، لا أنْ يخالفوه، وأنْ يُصدِّقوه، ولا يُكذِّبوه.

واتِّخاذُهم ﴿ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا﴾ له معنَيان:

فإنْ كان مِنَ «الهُجْر» ـ بضمِّ الهاء ـ فمعناه: ادِّعاؤهم فيه السَّيِّء من القول، وقولهم فيه هُجْرًا، أي: زعمهم أنَّه سِحرٌ وشِعرٌ وكِهانةٌ وكذِبٌ وأساطير الأوَّلين، قاله مجاهد[2].

(1) رواه مسلم (2408).
(2) أخرجه الطَّبري (443/17).



وإنْ كان مِنَ «الهَجْر» ـ بفتح الهاء ـ: فهو التَّرْكُ والبُعْدُ، أي: جعلوه متروكًا مُبْعَدًا مَقْصيًّا، وأعرَضوا عنه، ولم يسمعوا له، وهذا قول جابر بن زيد[3].

ولا مانِع مِن الأخذ بالقولين، لا سيما أنَّ الآية تحتمل المعنيين معًا، فيكون هجر القرآن بهذا وبهذا، بل وبغيرهما[4]، كما سيأتي بيانه في أنواع الهجر.

وهذا الإخبار مِن النَّبيِّ الكريم ﷺ حِكايةٌ عن قوله في الدُّنيا

(3) أخرجه الطَّبري (444/17).
(4) قال ابن عثيمين رحمه الله: «فإنَّ القاعدة ـ في علم التَّفسير ـ: أنَّ الآية إذا احتملت معنيَين لا تعارض بينهما، وَجَب الأخذ بهما جميعًا؛ لأنَّ الأخذ بالمعنيَين جميعًا أوسع للمعنى». [«تفسير جزء عمَّ» (ص222)].

ـ وهذا قول الجمهور، وهو الظَّاهر ـ بدليل ما يتبعه من التَّسلية والمؤانسة في الآية الموالية، فيكون ـ حينئذ ـ معطوفًا على قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا﴾ الآية [الفرقان: 21]، وما بينهما اعتراض.

وقيل: هذا سيكون من قوله ﷺ يوم القيامة، فيكون معطوفًا على قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾﴾ [الفرقان: 27].

وفي هذه الشِّكاية من رسول الله ﷺ: تخويفٌ عظيمٌ لقومه، وترهيبٌ لهم؛ لأنَّ أنبياءَ الله ورسلَه كانوا إذا شَكَوْا قومَهم إلى ربِّهم حلَّت بهم نقمة الله، وعجَّل لهم عذابه، ولم يُنْظَروا، وفي هذا وعيدٌ شديدٌ لكلِّ مَن كان هاجرًا للقرآن، بأيِّ وجهٍ من وُجوه الهجران.

فعزَّى الله تعالى نبيَّه ﷺ فيمَن سبقه من النَّبيِّين والمرسَلين، وجعل ذلك تسليةً له ومواساةً، ووعده النُّصرة على أعدائه، وأخبره بأنَّ هؤلاء القوم لهم سَلَفٌ صنعوا مثل صنيعهم، فقال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا ﴿٣١﴾﴾ [سورة الفرقان] أي: كما حصل لك أيُّها النَّبيُّ الكريم ـ في قومك ـ من هجرانهم للقرآن، والباعث على هذا هو العداوة، والعداوة من شأنها أنْ تؤدِّي إلى هَجر الأقوال والأفعال، فكذلك وقع للأنبياء ـ قبلك ـ مع أممهم، فلَك فيهم أسوةٌ، فلْتصبرْ على ما تلقاه، كما صبر أولُو العزم من الرُّسل[5].

وقد استدلَّ شيخُ الإسلام ابن تيميَّة رحمه الله بهذه الآيات على أنَّ هاجر القرآن: من أعداء النَّبيِّ ﷺ؛ فقال:

«فبيَّن أنَّ مَن هجر القرآن: فهو من أعداء الرَّسول، وأنَّ هذه العداوة أمرٌ لابدَّ منه، ولا مَفرَّ عنه»[6].

وتجدرُ الإشارة ـ هنا ـ إلى أنَّ هذه الآية ـ آية الشَّكوى ـ، وإنْ نزلت في حقِّ المشركين، وفي هجرهم للقرآن الكريم وكفرهم به، غير أنَّ نظمها ممَّا يُرهب ويُخيف عموم الهاجرين لكتاب الله وإنْ كانوا به من المؤمنين.

قال الشَّيخ ابن باديس رحمه الله:

«وفي حكاية القرآن لهذه الشَّكوى: وعيدٌ كبير للهاجرين، بإنزال العقاب بهم، إجابة لشكوى نبيِّه، ولـمَّا كان الهجرُ طبقات، أعلاها عدم الإيمان به، فلِكلِّ هاجر حظُّه من هذه الشَّكوى وهذا الوعيد. ونحن ـ معشر المسلمين ـ قد كان منَّا للقرآن العظيم هجرٌ كثيرٌ في الزَّمان الطَّويل، وإنْ كنَّا به مؤمنين»[7].

ولقد حذَّر الله تعالى من الإعراض عن القرآن فقال: ﴿كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٤﴾﴾ [سورة فصلت].

وتوعَّد من يفعل ذلك؛ فقال: ﴿وَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا ﴿٩٩﴾ مَّنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُۥ يَحْمِلُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وِزْرًا ﴿١٠٠﴾ خَٰلِدِينَ فِيهِ ۖ وَسَآءَ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ حِمْلًا ﴿١٠١﴾﴾ [سورة طه].

فعلى ضوء ما أوردَتْه كتبُ التَّفسير، يُعلم بأنَّ هجر القرآن ـ أو الإعراض عنه ـ له جانبان:

- □ جانب يتعلَّق بالقرآن ـ مع عدم الإيمان به ـ: وهذا صنيع الكفَّار والمنافقين.
- □ وجانب يتعلَّق بالقرآن ـ مع الإيمان والإقرار به ـ: وهذا صنيع المقصِّرين من المسلمين[8].

فعلى ضوء ما أوردَتْه كتبُ التَّفسير، يُعلم بأنَّ هجر القرآن ـ أو الإعراض عنه ـ له جانبان: جانب يتعلَّق بالقرآن ـ مع عدم الإيمان به ـ: وهذا صنيع الكفَّار والمنافقين. وجانب يتعلَّق بالقرآن ـ مع الإيمان والإقرار به ـ: وهذا صنيع المقصِّرين من المسلمين

أنواع هُجران القرآن

هجرُ القرآن ليس له صُورة واحدة، بل هو أنواع مختلفة، كما دلَّت عليه نصوص الوحيَين.

وقد أشار إليها بعض أهل العلم، أذكر ـ هنا ـ نقلين لعلَمين منهم، وهما: ابن القيِّم وابن كثير ـ عليهما رحمة الله ـ.

قال ابن كثير:

«كانوا إذا تُلي عليهم القرآن أكثروا اللَّغط والكلام في غيره حتَّى لا يسمعوه، فهذا من هُجرانه، وترك علمه وحفظه ـ أيضًا

(5) يُنظر ـ في معنى آيتي الفرقان ـ: «تفسير ابن أبي حاتم» (8/2687)، «معالم التَّنزيل» للبغوي (6/82)، «المحرَّر الوجيز» لابن عطيَّة (4/209)، «الجامع لأحكام القرآن» للقرطبي (15/405).

(6) «مجموع الفتاوى» (4/106).

(7) «آثار ابن باديس» (1/407).

(8) انظر: «نضرة النَّعيم» لعدد من المختصِّين بإشراف الشَّيخ صالح ابن عبد الله بن حميد ـ خطيب الحرم المكِّي ـ (11/5691).

ـ من هُجرانه، وترك الإيمان به وتصديقه من هُجرانه، وترك تدبُّره وتفهُّمه من هُجرانه، وترك العمل به وامتثال أوامره واجتناب زواجره من هُجرانه، والعُدول عنه إلى غيره ـ من شعر أو قول أو غناء أو لهو أو كلام أو طريقة مأخوذة من غيره ـ من هُجرانه»[9].

وقال ابن القيِّم:

«[فائدة]: هجر القرآن أنواع:

أحدها: هجر سماعه والإيمان به والإصغاء إليه.

والثَّاني: هجر العمل به، والوقوف عند حلاله وحرامه، وإنْ قرأه وآمن به.

والثَّالث: هجر تحكيمه والتَّحاكم إليه، في أصول الدِّين وفروعه، واعتقاد أنَّه لا يُفيد اليقين، وأنَّ أدلَّته لفظيَّة لا تحصل العلم.

والرَّابع: هجر تدبُّره وتفهُّمه ومعرفة ما أراد المتكلِّم به منه.

والخامس: هجر الاستشفاء والتَّداوي به، في جميع أمراض القلوب وأدوائها، فيطلب شفاء دائه من غيره، ويهجر التَّداوي به. وكلُّ هذا داخل في قوله: ﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُوا۟ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا ۝٣٠﴾ [الفرقان]، وإنْ كان بعض الهجر أهون من بعض»[10].

■ وتفصيل ذلك فيما يلي:

① هَجْر تلاوته:

لقد أمر الله تعالى بتلاوة كتابه العزيز واتِّباعه وقراءته، فقال: ﴿ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ [العنكبوت: 45]، وقال ـ حاكيًا قول نبيِّه ﷺ ـ: ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ۝٩١ وَأَنْ أَتْلُوَا۟ ٱلْقُرْءَانَ﴾ [النمل]، أي: وأُمرت ـ كذلك ـ بأنْ أتلو على النَّاس القرآن أبلِّغهم وَحْي الله تعالى[11].

وحثَّ رسولُ الله ﷺ على قراءة القرآن؛ ذاكرًا فَضْل ذلك؛ فقال: «**اقْرَأُوا الْقُرْآنَ؛ فَإِنَّهُ يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ شَفِيعًا لأَصْحَابِهِ...**» الحديث[12].

وكان ممَّا أوصى به ﷺ بعض أصحابه: قوله لأبي ذرٍّ الغفاريِّ رضي الله عنه: «**عَلَيْكَ بِتِلاوَةِ الْقُرْآنِ وَذِكْرِ اللَّهِ؛ فَإِنَّهُ نُورٌ لَكَ فِي الأَرْضِ، وَذُخْرٌ لَكَ فِي السَّمَاءِ**»[13].

(9) «تفسير القرآن العظيم» (303/10).
(10) «الفوائد» (ص156).
(11) انظر: «تفسير القرآن العظيم» لابن كثير (439/10)، «تيسير الكريم الرَّحمن» للسَّعدي (ص611).
(12) رواه مسلم (804) عن أبي أُمَامَةَ البَاهليِّ رضي الله عنه.
(13) رواه ابن حبَّان (361)، انظر: «صحيح التَّرغيب» (2233).

ونُنبِّه على أنَّ لفظ «**التِّلاوة**» يأتي بمعنى القراءة، ويُستعمل بمعنى الاتِّباع، بل هو المقصود من اللَّفظ؛ قال ابن القيِّم رحمه الله:

«قوله: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾ [البقرة: 121]، والمعنى: يتَّبعون كتاب الله حقَّ اتِّباعه، فتلاوة القرآن: تتناول تلاوةَ لفظه ومعناه، وتلاوةُ المعنى أشرف من مجرَّد تلاوة اللَّفظ، وأهلها هم أهل القرآن، الَّذين لهم الثَّناء في الدُّنيا والآخرة؛ فإنَّهم أهل تلاوة ومتابعة حقًّا»[14].

② هَجْر استماعه والإصغاء إليه:

أَمَرنا الله تعالى بالاستماع لآيات كتابه حين تُتلى، وعدم الانشغال عنه بغيره، تعظيمًا له واحترامًا؛ فقال: ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ۝٢٠٤﴾ [الأعراف].

وإنَّما قال: ﴿فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ﴾، ولم يقل: (فاسمعوا)؛ لأنَّ الاستماع يكون بحضور القلب، الَّذي يحصل معه التَّدبُّر؛ بخلاف السَّماع، الَّذي يكون من غير قصد.

قال ابن تيميَّة رحمه الله:

«فلو كان الرَّجل مارًّا فسمع القرآن، من غير أنْ يستمع إليه، لم يُؤجر على ذلك، وإنَّما يُؤجر على الاستماع الَّذي يقصد»[15].

وذكر ابن القيِّم رحمه الله أنَّ من أسباب هَجر استماع القرآن: الاستماع للأغاني وآلات الطَّرب، الَّذي زيَّنه الشَّيطان لكثير من النَّاس، فقال:

«ومن مكايد عدوِّ الله ومصايده، الَّتي كاد بها مَن قَلَّ نصيبه من العلم والعقل والدِّين، وصاد بها قلوب الجاهلين المبطلين: سماعُ المكاء والتَّصدية، والغناء بالآلات المحرَّمة، الَّذي يصدُّ القلوبَ عن القرآن، ويجعلها عاكفةً على الفُسوق والعصيان، فهو قرآن الشَّيطان، والحجاب الكثيف عن الرَّحمن»[16].

(14) «مفتاح دار السَّعادة» (202/1) ـ مع شيء من الحذف ـ.
(15) «مجموع الفتاوى» (213/30).
(16) «إغاثة اللَّهفان من مصائد الشَّيطان» (408/1).



③ **هَجْر تَدبُّره وتَفهُّمه:**

ينبغي لمن يقرأ القرآن أنْ يتدبَّر آياته، ويتأمَّل في معانيه وأحكامه، وهذا هو المقصود الأعظم من إنزاله، لا مجرَّد قراءته وتلاوته - على عظم أجرها -؛ قال تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾﴾ [سورة ص].

وقد وبَّخ الله تعالى مَن ترك التَّدبُّر في القرآن، فقال: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾﴾ [سورة محمد].

ولمَّا كان فقه القرآن وفهمه هو المقصود بتلاوته، لا مجرَّد القراءة فقط، لم يأذن النَّبيُّ ﷺ لعبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما أنْ يختم القرآن في أقلّ من ثلاث، وقال له: «**لَمْ يَفْقَهْ** - وفي رواية: **لا يَفْقَهُ** - **مَنْ قَرَأَ القُرْآنَ في أَقَلَّ مِنْ ثَلاث**»[17].

وهذا النَّوع من الهجر - أي: هَجر الفهم والتَّدبُّر - أشدُّ وأشنع من سابقَيْه - أي: هَجر تلاوته وسماعه -.

قال شيخ الإسلام ابن تيميَّة رحمه الله: «وهجر معانيه أعظم من هجر ألفاظه»[18].

وقراءةُ ما تيسَّر من آيات القرآن - بتدبُّر وتمعُّن - أفضلُ من قراءته كلِّه من غير فهْم.

قال ابن القيِّم رحمه الله:

«فقراءة آية بتفكُّر وتفهُّم خيرٌ من قراءة خَتْمَة بغير تدبُّر وتفهُّم، وأنفع للقلب، وأدعى إلى حصول الإيمان، وذوق حلاوة القرآن، وهذه كانت عادة السَّلف...فقراءة القرآن بالتَّفكُّر هي أصل صلاح القلب»[19].

④ **هَجْر العملِ به:**

إنَّ الغاية العُظمى من إنزال القرآن الكريم هي العمل به، وامتثال أوامره، واجتناب نواهيه، والوقوف عند حدوده، لهذا وردت آياتٌ عديدة فيه تأمر - أمْر إيجاب - باتِّباعه والعمل به؛ منها:

قوله تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُن فِى صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾﴾ [سورة الأعراف]، والعمل بالقرآن سبب لنيل رحمة الله - في الدُّنيا والآخرة -؛ قال تعالى: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٥٥﴾﴾ [سورة الأنعام].

قال ابن تيميَّة رحمه الله:

«والمطلوب من القرآن: هو فهم معانيه، والعمل به، فإنْ لم تكن هذه همَّة حافظه، لم يكن من أهل العلم والدِّين»[20].

ولقد ضرب الله تعالى لليهود - الَّذين تركوا العمل بالتَّوراة - مَثل السَّوء؛ فقال تعالى: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا ۚ بِئْسَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥﴾﴾ [سورة الجمعة].

وهذا المثل يلحق مَن لم يعمل بالقرآن الكريم - أيضًا -؛ قال ابن القيِّم رحمه الله:

«فهذا المثلُ وإنْ كان قد ضُرب لليهود، فهو مُتناول - من حيث المعنى - لمن حمَل القرآن، فترك العمل به، ولم يؤدِّ حقَّه، ولم يَرْعَه حقَّ رعايته»[21].

ومن هَجْر العمل بالقرآن: قولُ النَّبيِّ ﷺ - في وصف الخوارج -: «**يَقْرَأُونَ القُرْآنَ لا يُجَاوِزُ حَنَاجِرَهُمْ**»[22] أي: لا يرتفع إلى الله تعالى، ولا يُثابون عليه؛ لأنَّ أعمالهم له مخالفة: بسفك دماء المسلمين، وإخافة سُبُلهم[23].

⑤ **هَجْر الاستشفاء به والتَّداوي:**

إنَّ القرآن الكريم شفاءٌ لجميع أمراض القلوب والأبدان، سواء كانت أمراضُ القلوب: أمراضَ شُبهة وشكٍّ، أو أمراضَ شَهوة وغيٍّ؛ قال تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۙ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴿٨٢﴾﴾ [سورة الإسراء].

ونُشير - هنا - إلى أنَّ حرف الجرِّ (من): لبيان الجنس، لا للتَّبعيض، أي أن القرآن كله شفاء.

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾﴾ [سورة يونس].

وقال: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ﴾ [فُصّلت: 44].

قال ابن القيِّم رحمه الله:

«فالقرآنُ هو الشِّفاء التَّامُّ من جميع الأدواء القلبيَّة والبدنيَّة، وأدواء الدُّنيا والآخرة، وما كلُّ أحد يُؤهَّل ولا يُوفَّق للاستشفاء به، وإذا أحسن العليلُ التَّداويَ به، ووضعه على دائه بصدْق وإيمان، وقبول تامٍّ، واعتقاد جازم، واستيفاء شروطه،لم يُقاومْه الدَّاءُ أبدًا. وكيف تُقاومُ الأدواءُ كلام ربِّ الأرض والسَّماء، الَّذي

(17) رواه أبو داود (1397)، والتِّرمذي (2949)، وابن ماجه (1347)، انظر: «صحيح الجامع» (7743).

(18) «بيان تلبيس الجهميَّة» (514/8).

(19) «مفتاح دار السَّعادة» (187/1).

(20) «مجموع الفتاوى» (55/23).

(21) «إعلام الموقِّعين» (288/2).

(22) رواه البخاري (3344) ومسلم (1064) عن أبي سعيد رضي الله عنه.

(23) انظر: «شرح صحيح البخاري» لابن بطَّال (589/8).

لو نزل على الجبال لصدَعها، أو على الأرض لقطَعها، فما من مَرض ـ من أمراض القلوب والأبدان ـ إلاَّ وفي القرآن سبيل الدِّلالة على دوائه وسببه... وأمَّا الأدوية القلبيَّة؛ فإنَّه يذكرها مُفصَّلةً، ويذكر أسباب أدوائها وعلاجها، قال: ﴿ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ﴾ [العنكبوت: 51]، فمَن لم يَشْفه القرآن، فلا شفاه الله، ومَن لم يَكْفه، فلا كفاه الله»[24].

⑥ هَجْر تحكيمه والتَّحاكم إليه:

قد أنزل الله ـ عزَّ وجلَّ ـ القرآن الكريم ليحكم بين النَّاس فيما اختلفوا فيه، فتسعد به البشريَّة من خلال تطبيقهم لأحكامه، ونهاهم عن تحكيم غيره، أو التَّحاكم إلى سواه من القوانين الوضعيَّة.

والقارئ لكتاب الله يمرُّ على آيات كثيرة تدلُّ على وُجوب تحكيم الشَّريعة الإسلامية، الَّتي من مصادرها القرآن الكريم.

ونذكر في هذا الصَّدد ـ على سبيل التَّمثيل لا على وجه الحصر ـ بعض الآيات الَّتي تدعو إلى ذلك.

قال تعالى: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ ۚ وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا ﴿١٠٥﴾ ﴾ [سُورَةُ النِّسَاءِ]، وقال ـ أيضًا ـ: ﴿ وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَٰسِقُونَ ﴿٤٩﴾ أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾ [سُورَةُ المَائِدَةِ].

قال ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ:

«يُنكر تعالى على مَنْ خرج عن حُكم الله المحكَم المشتمل على كلِّ خير، النَّاهي عن كلِّ شرٍّ، وعدَل إلى ما سواه من الآراء والأهواء والاصطلاحات الَّتي وضعها الرِّجال بلا مُستنَد من شريعة الله، كما كان أهل الجاهليَّة يحكمون به من الضَّلالات والجهالات، ممَّا يضعونها بآرائهم وأهوائهم»[25].

ولمَّا أعرض النَّاس عن تحكيم كتاب الله ـ كما أمرهم الله ـ وحكموا بغير ما أنزل الله، استحقُّوا عُقوبة الله، وحلَّ بهم سَخَطه، وأذاقهم الله لباس الجوع، وظهر فيهم الفقر.

فعَن ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: **«خَمْسٌ بِخَمْسٍ»** قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ! وَمَا خَمْسٌ بِخَمْسٍ؟ قَالَ: **«مَا نَقَضَ قَوْمٌ العَهْدَ إلاَّ سُلِّطَ عَلَيْهِمْ عَدُوُّهُمْ، وَمَا حَكَمُوا بِغَيْرِ مَا أَنْزَلَ اللهُ إلاَّ فَشَا فِيهِمُ الفَقْرُ، وَلا ظَهَرَتْ فِيهِمُ الفَاحِشَةُ إلاَّ فَشَا فِيهِمُ المَوْتُ، وَلا طَفَّفُوا المِكْيَالَ إلاَّ مُنِعُوا النَّبَاتَ وَأُخِذُوا بِالسِّنِينَ، وَلا مَنَعُوا الزَّكَاةَ إلاَّ حُبِسَ عَنْهُمُ القَطْرُ»**[26].

ومن آثار الحُكْم بغير ما أنزل الله، وهَجْر التَّحاكُم إلى القرآن: وُقوعُ التَّنازع بين النَّاس، حتَّى يُصبح بعضُهم عَدُوًّا لبعض، فلا يجتمعون على كلمة سواء، فيكثُر فيهم الشَّرُّ، ويقلُّ فيهم الخير، والله المستعان.

فعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قَالَ: «أَقْبَلَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ فَقَالَ: **«يَا مَعْشَرَ المُهَاجِرِينَ! خَمْسٌ إِذَا ابْتُلِيتُمْ بِهِنَّ، وَأَعُوذُ بِاللهِ أَنْ تُدْرِكُوهُنَّ»**. وذكر منها ـ: **«وَمَا لَمْ تَحْكُمْ أَئِمَّتُهُمْ بِكِتَابِ اللهِ، وَيَتَخَيَّرُوا مِمَّا أَنْزَلَ اللهُ، إِلاَّ جَعَلَ اللهُ بَأْسَهُمْ بَيْنَهُمْ»**[27].

قال ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ:

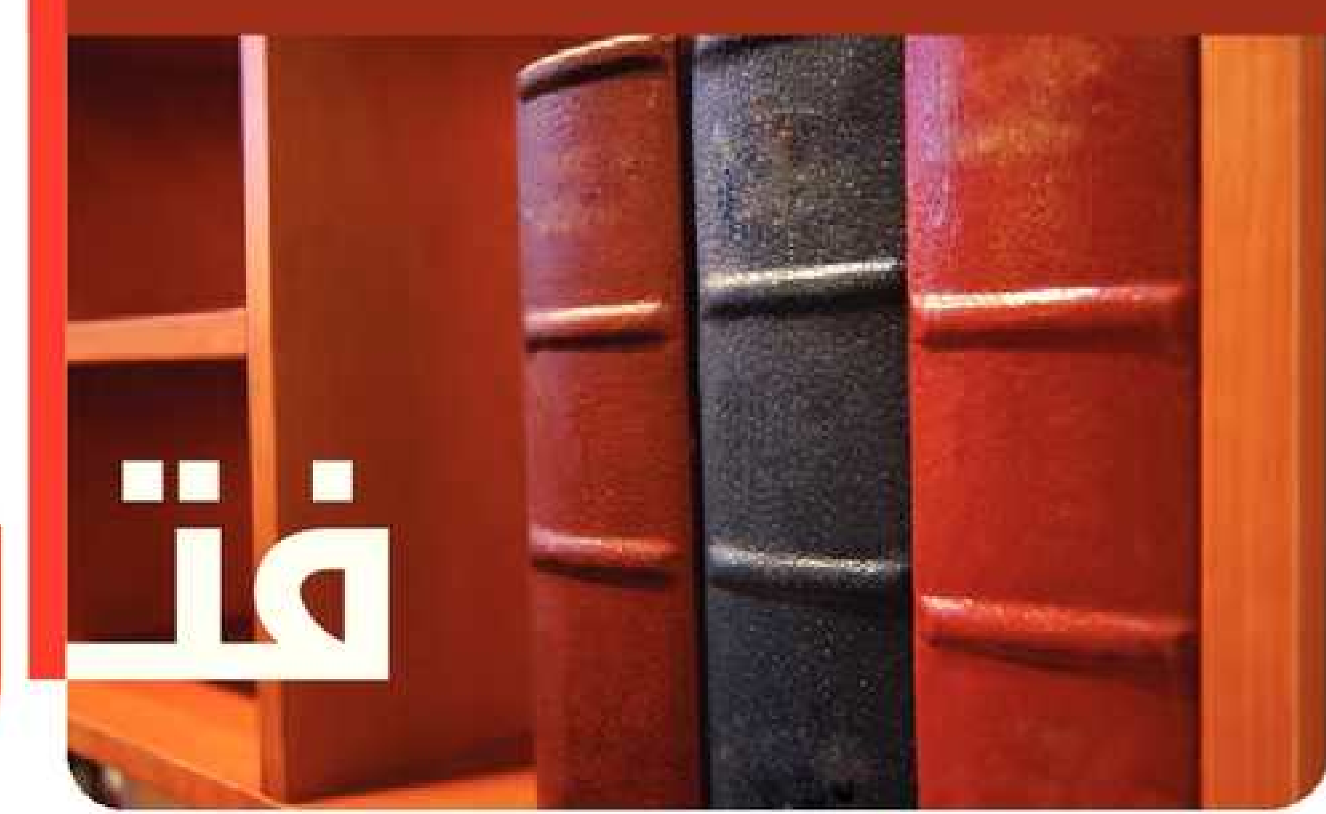
«وإذا خرج وُلاة الأمور عن هذا: فقد حكموا بغير ما أنزل الله، ووقع بأسهم بينهم، قال النَّبيُّ ﷺ: **«مَا حَكَمَ قَوْمٌ بِغَيْرِ مَا أَنْزَلَ اللهُ إِلاَّ وَقَعَ بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ»**، وهذا من أعظم أسباب تغيير الدُّول»[28].

□□□

نسألُكَ اللَّهمَّ بكلِّ اسم هو لك، سمَّيتَ به نفسك، أو علَّمته أحدًا من خلقك، أو أنزلتَه في كتابك، أو استأثرتَ به في علم الغيب عندك، أنْ تجعل القرآن العظيم ربيع قلوبنا، ونُور صُدورنا، وجلاء أحزاننا، وصلِّ اللَّهمَّ على عبدك ورسولك محمَّد، وعلى آله وأصحابه، وسلِّم تسليمًا كثيرًا، وآخر دعوانا أنِ الحمد لله ربِّ العالمين.

(24) «زاد المعاد» (352/4).
(25) «تفسير القرآن العظيم» (251/5).
(26) رواه الطَّبراني في «المعجم الكبير» (10992)، انظر: «صحيح الجامع» (3240).
(27) رواه ابن ماجه (4019)، انظر: «الصَّحيحة» (106).
(28) «مجموع الفتاوى» (35/ 388).





فتاوى شرعية

أ.د. محمد علي فركوس
أستاذ بكلية العلوم الإسلامية بجامعة الجزائر

في حكم تشريك قُربتين بعمل واحدٍ

السؤال:

هل يصحُّ الغسل بتشريك قُربتين، كغسل واحدٍ للجنابة والحيض، أو غسلٍ واحدٍ للجنابة والجمعة؟

الجواب:

الحمدُ لله ربِّ العالمين، والصَّلاةُ والسَّلامُ على مَنْ أرسله اللهُ رحمةً للعالمين، وعلى آله وصَحْبِهِ وإخوانِه إلى يوم الدِّين، أمَّا بعد:

فأمَّا مسألة تشريك قُربتين بعمل واحد؛ فإنَّ العلماء يختلفون في حكمها، كما تتباين آراؤهم فيما إذا لم تصحَّ، فهل يبطل العمل بالكُلِّية أم لا؟ وما هي العبادة الأولى بالصحَّة؟

والمختار من أقوال العلماء عدم جواز تشريك نيَّتين في عملٍ ولا أكثر من عبادة بفعل واحد؛ لأنَّ العبادة لا تغني عن قُربتين أو أكثر، كَمَن عليه قضاءُ الظُّهرِ لا يصحُّ أن يصلِّيَه بصلاة الظُّهر أداءً، أو كمن عليه كفَّارة نذر أو قضاء رمضان فلا يجوز له أن ينويه مع صيام رمضان أداء.

وخالف في هذا الأصل الأحناف، فيصحُّ عندهم الجمع بين عبادتين، وحصروا هذا التَّشريك في الطَّهارة والتَّيمُّم؛ لأنَّه يدخل في باب الوسائل لا المقاصد[1]، فيجزئ غسل واحد عن رفع الحدث الأكبر والأصغر، وعن الجمعة والجنابة مع حصول ثواب غسل الجمعة، كما يجزئ عن رفع حيض وجنابة، ويجزئ تيمُّم واحد عن الحدثين الأكبر والأصغر، وهكذا.

وأمَّا ما كان داخلاً في باب المقاصد؛ ففيه تفصيلٌ يرجع اعتباره إلى المقصود المراد تحقيقه.

هذا؛ والقول بالتَّشريك في النيَّة هو مذهب بعض الشَّافعيَّة أيضًا[2].

ومن أدلَّة من أجاز الجمع بين عبادتين بعمل واحد قوله ﷺ: «...**وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى**»[3]، فإنَّ عمومه يدلُّ على أنَّه إن نوى الكُلَّ أجزأه، ويُؤيِّدون ذلك بما رواه مسلم من حديث جابر ابن عبد الله رضي الله عنهما أنَّ وفد ثقيف سألوا النَّبيَّ ﷺ فقالوا: يا رسول الله! إنَّ أرضنا أرض باردة، فكيف بالغسل؟ فقال: «**أَمَّا أَنَا فَأُفْرِغُ عَلَى رَأْسِي ثَلاثًا**»[4]، فظاهر الحديث يفيد دخول الوضوء في الغسل، وبعمل واحد صَحَّت قربتان، وكذلك قوله: «**مَنْ غَسَّلَ يَوْمَ الجُمُعَةِ وَاغْتَسَلَ، وَبَكَّرَ وَابْتَكَرَ، وَمَشَى وَلَمْ يَرْكَبْ، وَدَنَا مِنَ الإِمَامِ، فَاسْتَمَعَ وَلَمْ يَلْغُ، كَانَ لَهُ بِكُلِّ خُطْوَةٍ عَمَلُ سَنَةٍ أَجْرُ صِيَامِهَا وَقِيَامِهَا**»[5]، والحديث إذا ما حُمل الاغتسال على غسل الجمعة والتَّغسيل على تغسيله امرأته؛ فإنَّه يدلُّ على جواز الجمع بين غسل الجنابة والجمعة، وكذلك قوله ﷺ لعمَّار بن ياسر رضي الله عنهما عندما أجنب: «**إِنَّمَا كَانَ يَكْفِيكَ هَكَذَا فَضَرَبَ النَّبِيُّ ﷺ بِكَفَّيْهِ الأَرْضَ وَنَفَخَ فِيهِمَا، ثُمَّ مَسَحَ بِهِمَا وَجْهَهُ وَكَفَّيْهِ**»[6]، فدلَّ

(1) «الأشباه والنظائر» لابن نجيم (39).

(2) انظر «المجموع» للنووي (1/326).

(3) أخرجه البخاري (1، 54)، ومسلم (1907)، من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

(4) أخرجه مسلم (328).

(5) أخرجه أبو داود (345)، والترمذي (496)، وابن ماجه (1087)، والنسائي (1381)، وأحمد (16962)، من حديث أوس بن أوس الثقفي رضي الله عنه، والحديث صَحَّحه الألباني. [انظر: «صحيح الجامع الصغير» للألباني (6405)].

(6) أخرجه البخاري (338)، ومسلم (368).

الحديث على إجزاء تيمُّم واحد للحَدَثين الأكبر والأصغر.

هذا؛ والقاعدة العامَّة تقتضي عدم إمكان إغناء العبادة الواحدة غَنَاءَ عبادتين؛ لأنَّه إذا ما قام الدَّليل على وجوب كُلِّ عبادة على سبيل الانفراد، فلا يجوز تشريكها في عمل واحد، لقوله ﷺ: «**إِنَّمَا الأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ**»، فالحديث يفيد أنَّ كُلَّ عملٍ مَنُوط بنيَّته، إذ مقابلة الجمع بالجمع يقتضي القسمة آحادًا، وأمَّا رواية الإفراد: «**إِنَّمَا الأَعْمَالُ بِالنِّيَّةِ**» فهي موافقة لرواية الجمع باعتبار المعنى؛ لأنَّ الألف واللاَّم إذا دخلت على الاسم أفادت فيه العموم مطلقًا عند الجمهور سواء كان مفردًا أو جمعًا ما لم تكن هناك قرينة عهد، وهو المنقول عن الشَّافعي وأحمد، وبه قال الشِّيرازي والباجي وابن بَرهان وصحَّحه ابن الحاجب والبيضاوي وغيرهم[7].

كما يمكن حمل رواية إفراد النِّيَّة على محلِّها وهو القلب، قال السُّيوطي: «أمَّا رواية «الأعمال بالنِّيَّة» فوجهه أنَّ محلَّ النِّيَّة القلب، وهو مُتَّحد، فناسب إفرادها...، ولأن النِّيَّة ترجع إلى الإخلاص، وهو واحد للواحد الَّذي لا شريك له»[8].

أمَّا المسائل المذكورة؛ فإنَّما تُستثنى من هذه القاعدة لوجود دليلٍ خاصٍّ يتمثَّل في تجويز الشَّرع هذا العمل بهذه الكيفيَّة، فإن وافق عملُه ما أقرَّه الشَّرع عليه كان مُصيبًا وعملُه مُجزئًا، كرفع الحدث الأكبر والأصغر بالغسل الواحد والتَّيمُّم الواحد، وصلاة العيد والجمعة، والقِران بين الحجِّ والعمرة، والصَّدقة لذي رحم، وحصول تحيَّة المسجد بالفريضة أو الرَّاتبة، فإنَّ هذه القضايا ونظائرها إنَّما أجزأت بنيَّة واحدة؛ لأنَّه بحصول الفعل يتحقَّق مراد الشَّارع ومقصوده، أي أنَّ تحيَّة المسجد مثلاً تحصل بأداء الفريضة وإن لم يَنْوِ التَّحيَّة؛ لأنَّ القصد بالتَّحيَّة شغل البقعة من المسجد بالعبادة، وقد حصل[9]، فغياب قصد المكلَّف لا يُؤثِّر لكون العبادة جاءت على وَفق ما طلبه الشَّارع.

أمَّا الاستدلال بعموم حديث: «**وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى**» فساقط؛ لأنَّ المراد منه أنَّ العبد له نيَّته الصَّالحة أو الفاسدة في العمل المشروع، وهذا العمل المشروع لا يجزئه عند الله تعالى إلاَّ مع النِّيَّة الصَّالحة دون الفاسدة، ويدلُّ على هذا ما ختم به الحديث، وتمامه قوله ﷺ: «**فَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى اللهِ وَرَسُوله، فَهِجْرَتُهُ إِلَى اللهِ وَرَسُوله، وَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى دُنْيَا يُصِيبُهَا أَوِ امْرَأَةٍ يَنْكِحُهَا فَهِجْرَتُهُ إِلَى مَا هَاجَرَ إِلَيْهِ**»، فإنَّ الهجرةَ الأولى مقبولةٌ عند الله للنِّيَّة الصَّالحة، والثَّانيةَ مردودةٌ لفسادها، فكان الحديث دالاًّ على صلاح العمل الثَّابت في الشَّرع جوازُه مع اقترانه بالنِّيَّة الصَّالحة، وليس فيه دليلٌ على صحَّة عمل وصلاحه بمجرَّد النِّيَّة الصَّالحة إذا لم يثبت جوازُه بدليل خاصٍّ.

فالحاصل أنَّ من قصد عبادتين فأكثر بفعل واحد لا يصحُّ، ولا تقع إلاَّ على عبادة واحدة عند الجمهور، خلافًا لابن حزم الَّذي يُقرِّر بطلان كُلِّ عبادة قُصد بها تحقيق قُربتين، ونقل عن جماعة من السَّلف القول بعدم الإجزاء[10].

ومن لم يُبطل العملَ بالكُلِّية ظهر الخلاف بينهم على أيِّ عبادة تقع صحيحة، فالأحناف يُقدِّمون الأولويَّة في الحكم، فما كان فرضًا فهو أولى بالتَّقديم صحَّة؛ لكونه أقوى في درجة الحكم الشَّرعي، فإن استويا في القُوَّة فيكون تصحيح إحدى العبادتين مَنُوطًا باختيار المكلَّف، فإن اختار إحداهما انصرفت إليه صحَّة، وبطلت الثَّانية[11]، وعلى العكس من ذلك، فالشَّافعيَّة يَرَون أنَّ من قصد أكثر من عبادة بالفعل الواحد فإنَّها تقع على النَّفل والتَّطوُّع، لا على الفريضة؛ لأنَّ النِّيَّة فيها غير جازمة بسبب التَّردُّد الَّذي ينافي الجزم المطلوب فيها.

والَّذي تطمئنُّ إليه النَّفس ـ في غير المسائل المنصوص عليها ـ هو القول بأنَّ المكلَّف إن قصد التَّقرُّب بتشريك عبادتين، وكانت إحداهما مقصودة بنيَّته على وجه التَّغليب دون الأخرى فإنَّ العبادة الغالبة بنيَّته تجزئه ـ إن شاء الله ـ، بغضِّ النَّظر عن كونها فرضًا أو نفلاً، لكون المؤدِّي لها يقصدها بالدَّرجة الأولى من غير تردُّد أو شكٍّ، والحكم للأغلب، إذ «**مُعْظَمُ الشَّيْءِ يَقُومُ مَقَامَ كُلِّه**».

أمَّا في حالة تساوي العبادتين في قصده؛ فإنَّهما تتساقطان، ويصير العمل لا له ولا عليه؛ لأنَّ نيَّة العامل لا تصحِّح فساد عمله، لقوله ﷺ: «**مَنْ عَمِلَ عَمَلاً لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ**»[12]، والعلمُ عند الله تعالى.

❁❁❁

(7) انظر «شرح اللمع» للشيرازي (303/1)، «إحكام الفصول» للباجي (231)، «العدة» لأبي يعلى (485/2)، «الوصول» لابن برهان (217/1)، «نهاية السول» للإسنوي (91/2)، «إرشاد الفحول» للشوكاني (119).

(8) «منتهى الآمال» للسيوطي (73).

(9) انظر «المجموع» للنووي (325/1)، و«منتهى الآمال» للسيوطي (122).

(10) «المحلَّى» لابن حزم (43/2، 174/6).

(11) «الأشباه والنظائر» لابن نجيم (39)، «نزهة النواظر» لابن عابدين (39).

(12) أخرجه مسلم (1718)، من حديث عائشة رضي الله عنها، وقد اتَّفقا على إخراجه بلفظ: «مَنْ أَحْدَثَ فِي أَمْرِنَا هَذَا مَا لَيْسَ مِنْهُ فَهُوَ رَدٌّ»، أخرجه البخاري (2697)، ومسلم (1718).



في حكم التسويق الشبكي (الهرمي)

السُّؤال:

شيخنا الفاضل ـ حفظكم الله ـ انتشرت في الآونة الأخيرة بعض المعاملات بطريقة التَّسويق الشَّبكي لشركات عالمية مثل (Qnet)، وتتلخَّص صورة هذه المعاملات في إقناع الشَّركة لشخص ما بشراء سلعة أو مُنْتَج على أن يقوم بإقناع آخَرين بالشِّراء ليقنع هؤلاء آخَرين بالشِّراء وهكذا، وكلَّما زادت طبقات المشتركين حصل المشترك الأوَّل على مبالغ أكثر، وكلُّ مشترك يقنع من بعده بالاشتراك مقابلَ مبالغَ مالية كبيرة، فما حكم هذه المعاملة ـ بارك الله فيكم ـ؟ وهل هي من السَّمسرة الجائزة؟ وجزاكم الله خيرًا.

الجواب:

إذا ظهر أنَّ نظام التَّسويق الشَّبكي للشَّركات العالميَّة تتعامل بهذا الأسلوب في تسويق منتجاتها؛ فإنَّه ـ والحال هذه ـ تقترن به عدَّة محاذيرَ شرعيَّة يمكن إبرازها على النَّحو التَّالي:

المحذور الأوَّل: اشتمال هذه المعاملة على **الغرر والميسر والمقامرة** المحرَّمة شرعًا؛ ذلك لأنَّ المشترك لا يُسهم في التَّسويق الشَّبكي إلاَّ بغرض العوض المالي على جلب الزَّبائن المشتركين، وتزيد عمولته ويربح أكثر كلَّما أحضر عددًا أكبر من الزَّبائن وحقَّق شروط الشَّركة، أو قد تنقص عن المبلغ الأوَّل الَّذي دفعه، وإذا ما فشل في مَهَمَّته خسر المبلغ كلَّه، وبين حالتَي الرِّبح والخسارة يجهل المشترك ـ حالَ إسهامه في التَّسويق الشَّبكي أو الهرمي ـ هل يكون غانمًا أو غارمًا؟ وهذه الجهالة تجرُّه ـ في تعامُله هذا ـ إلى الولوج في باب الغرر المنهيِّ عنه في حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: «**نَهَى رَسُولُ اللهِ ﷺ عَنْ بَيْعِ الحَصَاةِ وَعَنْ بَيْعِ الغَرَرِ**»[13]، وغيره من الأحاديث الصَّحيحة الشَّاملة للغرر والميسر والمقامرة.

المحذور الثَّاني: اشتمال هذه المعاملة على الرِّبا الخفيِّ[14] **وهو ربا البيوع بقسمَيْه: ربا الفضل وربا النَّسيئة**، ذلك لأنَّ المعلوم أنَّ البضاعة الَّتي هي محلُّ التَّسويق الشَّبكي ليست مقصودةً في ذاتها، وإنَّما هي مستعملةٌ كقناعٍ يُتذرَّع به للحصول على المبالغ الماليَّة من عمولات الزَّبائن الَّتي قد تفوق تلك البضاعة، ويؤكِّد معنى عدم إرادة تلك البضاعة في حدِّ ذاتها أنَّ ثمنها المعروض في الشَّركة أغلى من قيمتها الحقيقيَّة في السُّوق.

فإذا تقرَّر أنَّ البضاعة أو السِّلعة ليست مقصودةً في ذاتها تأكَّد أنَّ المقصود الحقيقيَّ من هذا التَّعامل هو تسويق العمولات لا البضاعة أو السِّلعة، فيُسهم المشترك بدفع قليلٍ من المال ليحصل على مالٍ أوفرَ منه بكثير، فتتجلَّى صورة المبادلة على حقيقتها على الوجه التَّالي: بيعُ عمولةٍ نقديَّةٍ بعمولةٍ نقديةٍ مع حصول التَّفاضل بينهما والنَّسيئة تحت قناعٍ أو ستارِ البضاعة أو السِّلعة أو المنتج الَّذي تقوم بتسويقه تلك الشَّركات، وقد أجمع أهل العلم على تحريم ربا البيوع بضربيه: الفضل والنَّسيئة[15] ومن مستند هذا الإجماع قوله ﷺ: «**لاَ تَبِيعُوا الذَّهَبَ بِالذَّهَبِ إِلاَّ مِثْلاً بِمِثْلٍ، وَلاَ تُشِفُّوا بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ، وَلاَ تَبِيعُوا الوَرِقَ بِالوَرِقِ إِلاَّ مِثْلاً بِمِثْلٍ، وَلاَ تُشِفُّوا بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ، وَلاَ تَبِيعُوا مِنْهَا غَائِبًا بِنَاجِزٍ**»[16].

كما أنَّ هذه المبادلة لها شبهٌ قريبٌ ببيع العينة حيث يكون المقصود منها التَّحايلَ على تحريم الرِّبا باتِّخاذ عينٍ أو سلعة للوصول إلى تحصيل الرِّبا تحت غطاء البيع، وقد ورد تحريمه في قوله ﷺ: «**إِذَا تَبَايَعْتُمْ بِالْعِينَةِ، وَأَخَذْتُمْ أَذْنَابَ الْبَقَرِ، وَرَضِيتُمْ بِالزَّرْعِ، وَتَرَكْتُمُ الْجِهَادَ، سَلَّطَ اللهُ عَلَيْكُمْ ذُلاًّ لاَ يَنْزِعُهُ حَتَّى تَرْجِعُوا إِلَى دِينِكُمْ**»[17].

---

(13) أخرجه مسلم (1513) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(14) انظر تقسيم ابن القيِّم للرِّبا الجليِّ والخفيِّ في «إعلام الموقِّعين» (2/154. 155).

(15) انظر: «المغني» لابن قدامة (3/4).

(16) أخرجه البخاري (2177)، ومسلم (1584)، من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

(17) أخرجه أبو داود (3462)، من حديث ابن عمر رضي الله عنهما، وصحَّحه الألباني في «الصَّحيحة» (11).

المحذور الثَّالث: اشتمال هذه المعاملة على ظلم العبد لأخيه؛ ذلك لأنَّ التَّسويق الشَّبكيَّ يعتمد في ترويج منتجه أو سلعته على الدِّعاية المغرية الَّتي تخدع المشاركين بها وتغريهم بتحصيل أرباح كبيرة وعمولات فاحشة في مقابل مبلغ يسير وهو ثمن المنتج الَّذي تتوخَّى به الشَّركات في الأصل ـ من خلال التَّسويق والمتاجرة المقنَّعة ـ تجميعَ أكبر قدرٍ من المشتركين، الأمر الذي يفضي ـ في الغالب الأعمِّ ـ إلى وقوع أكثرية المشاركين من الطَّبقة الدُّنيا من الشَّبكة الهرميَّة ضحيَّةً في شراك هذا الأسلوب التَّسويقي الماكر بالغشِّ والتَّلبيس، في حين تتحقَّق أطماع الطَّبقة العليا الغانمة على حساب الأكثريَّة الغارمة، وهذه المعاملات تدخل ـ بلا شكٍّ ـ في عموم قوله تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ﴾ [البقرة: 188]، إذ «الخداع الَّذي هو مَظنَّة أنْ لا رضا به عند تحقُّقه فيكون من أكل المال بالباطل»[18]، كما تشمله النُّصوص الشَّرعيَّة النَّاهية عن الغشِّ والتَّدليس والتَّلبيس على النَّاس ونحو ذلك، وقد ورد في الحديث: «**مَنْ أَشَارَ عَلَى أَخِيهِ بِأَمْرٍ يَعْلَمُ أَنَّ الرُّشْدَ فِي غَيْرِهِ فَقَدْ خَانَهُ**»[19].

هذا؛ ولا يدخل نظام التَّسويق الشَّبكي في باب السَّمسرة لاختلافه عنها من عدَّة وجوه منها:

الأوَّل: أنَّ السَّمسرة عقدٌ يُكلَّف بموجَبه السّمسارُ بالبحث عن شخص آخَرَ لربط العلاقة بين الطَّرفين قصْدَ إبرام العقد بينهما مقابلَ أجرة.

بينما نظام التَّسويق الشَّبكي يقوم المشارك فيه بدفع الأجر لتسويق بضاعة الشَّركة أو منتجها.

الثَّاني: يتميَّز عقد السَّمسرة بغياب العلاقة التَّبعيَّة، أي: لا تربط السّمسار أيُّ علاقة تبعيَّة بعميله، في حين تربط المشاركَ ـ في نظام التَّسويق الشَّبكي ـ علاقةٌ تبعيَّةٌ بعميله حتَّى يَصِلَ التَّسويق الشَّبكي إلى نهايته.

الثَّالث: العقد الَّذي يُبرمه السَّمسار مع عميله ينتهي متى أبرم الطَّرفان العقدَ ويستحقُّ السَّمسار أجرةً، بينما في التَّسويق الشَّبكي قد يستمرُّ التَّسويق إلى وقتٍ لا يدري المشترك فيه ما إذا كان غانمًا أو غارمًا.

الرَّابع: عقد السَّمسرة عقدُ وساطة وتقريب بين العميل والمتعاقَد معه، يقوم السّمسار على حملِ إرادة الطَّرفين على التَّعاقد، ويكون هدفه الأساسيُّ تسهيلَ عمليَّة التَّعاقد على البضاعة أو المنتج محلِّ التَّعاقد بصورة حقيقية، أي: أنَّ البضاعة أو المنتج مقصودٌ في ذاته مجرَّدٌ عن أيِّ تلبيس.

بينما التَّسويق الشَّبكي ليس بهذه الصُّورة، فهدفه الأساسي الَّذي يرمي إليه إنَّما هو تحصيل العمولات والأرباح، فيسوِّق البضاعة بنفسه لمن يريد أن يسوِّقها إلى غيره، من غير أن تكون البضاعة أو المنتج مقصودًا في ذاته، وإنَّما هو معبرٌ للتوصُّل إلى توفير المال وتكثيره.

وبناءً على ما تقدَّم، فإنَّ حرمة هذه المعاملة تتأكَّد بمجموع المحاذير السَّابقة المقترنة بها، وإن كان محذورٌ واحدٌ يكفي في الحكم عليها بالمنع لما اشتملت عليه من الظُّلم والفساد، والتَّسويق الشَّبكي ـ بأسلوبه الإغرائيِّ ـ لا يمتُّ بصلة للسمسرة المشروعة للفوارق العديدة بينهما ـ كما تقدَّم ـ، وإنَّما حقيقة التَّسويق الشَّبكي ألصقُ بالميسر والمقامرة والرِّبا، والعلم عند الله تعالى.

(18) «سبل السَّلام» للصنعاني (3/28).

(19) أخرجه أبو داود (3657)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وصحَّحه الألباني في «صحيح الجامع» (6068).

في اختلاف دخول وقت الوتر عند جمع التقديم بين المغرب والعشاء

السُّؤال:

هل تُشرع صلاة الوتر عند الجمع بين المغرب والعشاء مباشرةً أو ينتظر دخول وقت العشاء الأصلي؟

الجواب:

لا خلاف بين أهل العلم أنَّ ما بعد صلاة العشاء إذا أدِّيت بعد دخول وقتها بمغيب الشَّفق إلى طلوع الفجر هو وقتٌ للوتر إجماعًا[20]، غير أنَّهم يختلفون في وقت الوتر في حقِّ من جمع العشاء مع المغرب جمْعَ تقديم، ومنشأ اختلافهم في تقرير تبعيَّة الوتر وارتباطه، بمعنى: هل الوتر تابعٌ لصلاة العشاء ومرتبطٌ بها أم أنَّه متعلِّقٌ بوقت خاصٍّ مبدؤه العشاء وهو مغيب الشَّفق؟ وإذا ارتبط بوقت العشاء، فهل يجوز أداء الوتر قبل صلاة العشاء أم لا يصحُّ إلاَّ بعدها؟

فمذهب الشَّافعيَّة والحنابلة جوازُ صلاة الوتر بعد صلاة العشاء ولو لم يَغِبِ الشَّفق[21]، أي: يصلِّي الوترَ بعد الفراغ من

(20) انظر: «الإجماع» لابن المنذر (29)، «المهذَّب» للشيرازي (1/90)، «بداية المجتهد» لابن رشد (1/202).

(21) انظر: «المغني» لابن قدامة (2/281)، «روضة الطالبين» للنووي (1/402).

صلاة العشاء من غير اشتراط لدخول وقتها، وقد علَّلوا بأنَّ الوتر تابعٌ لفريضة العشاء ومرتَّبٌ عليها مطلقًا، سواءٌ صلَّى العشاءَ في وقتها أو مجموعةً مع المغرب، مستدلِّين بعموم قوله ﷺ: «**إنَّ الله زَادَكُمْ صَلاَةً، وَهِيَ الوِتْرُ، فَصَلُّوهَا فِيمَا بَيْنَ صَلاَةِ العِشَاءِ إِلَى صَلاَةِ الفَجْرِ**»[22]، وبقول عائشة رضي الله عنها: «كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يُصَلِّي فِيمَا بَيْنَ أَنْ يَفْرُغَ مِنْ صَلاَةِ العِشَاءِ ـ وَهِيَ الَّتِي يَدْعُو النَّاسُ العَتَمَةَ ـ إِلَى الفَجْرِ، إِحْدَى عَشْرَةَ رَكْعَةً»[23]، ولم يفصِّل الحديثان بين العشاء في وقتها والعشاء المجموعة مع المغرب، وذلك يفيد العمومَ عملاً بقاعدة: «تَرْكُ الاسْتِفْصَالِ فِي مَقَامِ الاحْتِمَالِ يُنَزَّلُ مَنْزِلَةَ العُمُومِ فِي المَقَالِ».

أمَّا مذهب المالكيَّة فهو عدمُ جواز صلاة الوتر إلاَّ بعد مغيب الشَّفق[24]، أي: بعد دخول وقت العشاء والفراغ من صلاتها، وللشَّافعيَّة وجهٌ أنَّه يجوز أن يصلِّيَ الوترَ في وقت العشاء ولو قبل الفريضة[25]، وعلَّلوا مذهبهم بأنَّ الوتر تابعٌ للوقت الخاصِّ، وهو ما بين صلاة العشاء إلى طلوع الفجر، فيكون اللَّيل المخصوصُ كلُّه محلاً لوقت صلاة الوتر، وأوَّلُ اللَّيل المعهودُ من بعد مغيب الشَّفق، واستدلُّوا بحديث عائشة رضي الله عنها قالت: «مِنْ كُلِّ اللَّيْلِ قَدْ أَوْتَرَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: مِنْ أَوَّلِ اللَّيْلِ وَأَوْسَطِهِ وَآخِرِهِ»[26]، فدلَّ ذلك أنَّ ما قبل مغيب الشَّفق ليس محلاً للوتر، ولقوله ﷺ: «**لَقَدْ أَمَدَّكُمُ اللهُ ـ اللَّيْلَةَ ـ بِصَلاَةٍ هِيَ خَيْرٌ لَكُمْ مِنْ حُمْرِ النَّعَمِ**»، قَالَ: فَقُلْنَا: مَا هِيَ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: «**الوِتْرُ فِيمَا بَيْنَ صَلاَةِ العِشَاءِ إِلَى طُلُوعِ الفَجْرِ**»[27]، وظاهرُ لفظ «اللَّيلة» في الحديث ينصرف إلى الوقت الخاصِّ فيفيد تحديدَ بدء وقت الوتر بما بعد مغيب الشَّفق، كما أنَّ فيه دليلاً على أنَّه لا اعتداد بالوتر قبل صلاة العشاء ولو بعد دخول الوقت.

وفي تقديري أنَّ مذهب المالكية ـ في هذه المسألة ـ أرجح وأحوط، وذلك من وجوه:

ـ لأنَّه لم يُنقل عن النَّبيِّ ﷺ ـ في حدود علمي ـ مع كثرة جَمْعه للحرج أنَّه أوتر بعد صلاة العشاء مجموعةً مع المغرب، ولا نُقل عن أصحابه رضي الله عنهم فعلُ ذلك.

ـ ولأنَّ محلَّ الوتر هو اللَّيل الخاصُّ أي: ما بعد مغيب الشَّفق إلى طلوع الفجر، وهو وقتٌ خاصٌّ بالوتر لا يتقدَّم عليه وإن قُدِّمت صلاةُ العشاء، ذلك لأنَّ المقصود بالعشاء في الأحاديث السَّالفة الذِّكر إنَّما هي عشاءٌ صحيحةٌ مؤدَّاةٌ في وقتها الأصليِّ، وهو الَّذي عناه النَّبيُّ ﷺ دون صلاة العشاء المجموعة مع المغرب، فهي ـ بهذه الصُّورة ـ مقدَّمةٌ عن وقت وجوبها، وإنَّما جُوِّز فعلُها فيه ـ ترخيصًا للعذر ـ تبعًا للأولى وهي صلاة المغرب، والتَّابع في حكم متبوعه فلا يتقدَّم عليه ولا يخرج عن وقته، لذلك لم تكن الأحاديث الصَّحيحة داخلةً في باب العموم؛ لأنَّ إيقاع الوتر ـ في أصل التَّوقيت ـ قبل مغيب الشَّفق غير مأذون فيه، لذلك ينصرف الوقت إلى ما هو معهودٌ شرعًا وعرفًا.

ـ لا خلاف في أنَّ صلاة تراويح رمضان بما فيها من وتر كان النَّاس يقومونها أوَّلَ اللَّيل بعد عشاءٍ صحيحة، ثمَّ استمرَّ العمل على هذا إلى يومنا ولم يُنقل الخروجُ عن ذلك.

ـ ولأنَّ إيقاع صلاة الوتر في الوقت الخاصِّ المجمع عليه أحوطُ للدِّين وأحفظ للوفاق، عملاً بقاعدة: «يُسْتَحَبُّ الخُرُوجُ مِنَ الخِلاَفِ»[28].

والعلم عند الله تعالى، وآخر دعوانا أن الحمد لله ربِّ العالمين وصلَّى الله على محمَّدٍ وعلى آله وصحبه وإخوانه إلى يوم الدين وسلَّم تسليمًا.



(22) أخرجه أحمد (23851)، والطبراني في «المعجم الكبير» (2167)، والحاكم (6514)، من حديث أبي بصرة الغفاري رضي الله عنه، وصحَّح إسناده الألباني في «إرواء الغليل» (158/2) و«السِّلسلة الصَّحيحة» (108).

(23) أخرجه مسلم (736).

(24) انظر: «الفواكه الدواني» للنفراوي (273/2)، «شرح زروق على متن الرسالة» (184/1)، أمَّا الحنفية فالظاهر أنه لا تَرِدُ المسألة ـ عندهم ـ لأنهم خصُّوا الجمعَ بعرفة ومزدلفة، والجمعُ بمزدلفة يكون بتأخير المغرب إلى العشاء في وقت العشاء، فلا إشكال في ذلك، والله أعلم.

(25) انظر: «المجموع» للنَّووي (13/4).

(26) أخرجه مسلم (745).

(27) أخرجه أحمد (445/39)، من حديث خارجة بن حذافة العدوي رضي الله عنه، وصحَّحه محقِّقو «المسند».

(28) انظر القاعدة في: «الأشباه والنظائر» للسيوطي (136).

الشيخ العلامة:

عمر بن محمد فلاته رَحِمَهُ اللهُ

(ت 1419 هـ)

د.محمد عمر محمد فلاته
الجامعة الإسلامية بالمدينة النبوية

الشَّيخ عمر فلاَّته؛ أحد علماء المدينة في القرن الخامس عشر الهجري، وممَّن استفاد النَّاس من علمهم وتوجيههم وإرشادهم في المسجد النَّبوي، فقد بقي يعلِّم النَّاسَ الخيرَ في المسجد الَّذي كان على عهد النَّبيِّ ﷺ، وبالقُرب من رَوضته الشَّريفة ما يقارب نصفَ قرن من الزَّمان، ولذلك اشتهر وعرفه النَّاسُ، وأحبُّوا فيه جانبَ اللِّين والحكمة والتَّواضع والإخلاص في القَول والنَّصيحة.

وهذه نبذةٌ مختصَرةٌ من حياة هذا العالِم الرَّبَّاني من خلال التَّراجم الَّتي كُتِبت عنه وأقوال بعض العارِفين به. يرحمه الله..

اسمه ونسبته:

هو الشَّيخ عمر بن محمَّد بكر الفُلاَّني ـ بضمِّ الفاء الشَّهير بفلاَّتة، والفلاَّني نسبةً إلى القبيلة المنتشِرة في معظم أفريقيا الغربيَّة، وينتهي نسبُها ـ على رأي بعض المؤرِّخين ـ إلى عُقبة بن نافع، أو عامر، أو ابن ياسر، ولعلَّه عُقبة آخر غير فاتِح أفريقيا.

ولادته ونشأته:

ولد الشَّيخ رَحِمَهُ اللهُ خلالَ هجرة والدَيه إلى بلاد الحرمَين عام 1345هـ بالقُرب من مكَّة المكرَّمة، ثمَّ انتَقل أبـواه إلى المدينة النَّبويَّة في العام الَّذي يليه، نظرًا لوجود جَدَّة الشَّيخ لأبيه بها، والَّتي قدِمت إلى بلاد الحرمَين زمن الحُكم العثماني، واستقرَّت بالمدينة، وتوفِّيت بعد سنَواتٍ من قُدوم والد الشَّيخ وأُسرَته إلى المدينة.

وقد نشَأ وترَعرع بالمدينة في محلَّة السَّاحة القريبة من المسجد النَّبوي، وسكن بعد ذلك إحدى الـدُّور القريبة من مسجد الصَّحابي الجليل مالك بن سِنان رَضِيَ اللهُ عَنْهُ الواقع وسَط المدينة شرقَ ما كان يُعرف آنذاك بالمناخة.

۞ دراساته وإجازاته:

تلقَّى الشَّيخُ مبادئَ القراءة والكتابة في كُتَّاب العَريف محمَّد ابن سالم رَحِمَهُ اللهُ الَّذي تولَّى تعليم الكثير من أبناء المدينة في زمانه، على مَقرُبة من المدخل الشَّمالي للمسجد النَّبوي، حيث البابُ القديم للسُّلطان عبد المجيد.

ثمَّ انتقل إلى مدرسة العلوم الشَّرعية وتخرَّج منها، وواصل تعليمَه بعد ذلك بمدرسة دار الحديث بالمدينة، وأتمَّ الدِّراسة العالية بها عام 1364هـ.

وحصَل ـ وَفق منهج عُلماء الحديث ـ على العديد من الإجازات العلميَّة؛ فقد أجازه الشَّيخ عبد الرَّحمن ابن يوسف الأفريقي، والشَّيخ محمَّد ابن إبراهيم الخَتني، والشَّيخ سالم باجندان الحَضرمي، والشَّيخ محمَّد الحافظ موسى وغيرهم.

ودرس أيضًا على جملة من علماء المدينة النَّبويَّة الأجلَّاء؛ منهم إمام المسجد النَّبوي الشَّريف في زمانه: الشَّيخ صالح الزُّغيبي، والشَّيخ محمَّد ابن علي الحَركان، والشَّيخ محمَّد ابن جاتو الفلَّاني، والشَّيخ عمَّار الأزعَر الجزائري[1]، وغيرهم.

۞ عشرات السنين في خدمة الإسلام:

اشتغل الشَّيخ رَحِمَهُ اللهُ بعد تخرُّجه من دار الحديث بالتَّدريس بها وإدارتها، وبالتَّدريس أيضًا في بعض مدارس وزارة المعارف، والمعهد العلميِّ بالمدينة.

وكلِّف بالعمل لسنوات طويلة في الأمانة العامَّة بالجامعة الإسلاميَّة، ومركز شؤون الدَّعوة، وأسَّس رَحِمَهُ اللهُ بالجامعة عام 1406هـ مركز خدمة السُّنة والسِّيرة النَّبويَّة، وتقاعد عن العمل في رجب من عام 1410هـ.

وكان قد بدأ تدريسَه في المسجد النَّبوي الشَّريف عام 1370 هـ، واستمرَّ فيه قُرابة نصف قرن؛ يعطي دروسَه النَّافعة المفيدة، قريبًا من الرَّوضة الشَّريفة، خلفَ مكبريَّة الأذان.

وكان يحضُر دروسه جمعٌ كبيرٌ من الطُّلَّاب، ورُوَّاد المسجد النَّبوي، والزَّائرين والحجَّاج والمعتمرين، وكان يشُدُّ الحاضرين بحديثه لفصاحَته، وجَودة أسلوبه، وتمكُّنه من ذلك، وفي مكتبة الحرم النَّبوي الصَّوتية عددٌ لا بأس به من أشرطة دروس الشَّيخ لـ«صحيح مسلم»، و«تفسير ابن كثير»، و«سنن أبي داود»، و«الشَّمائل»، وسيرة الذَّهبي... إلخ.

وعُرفَ برحلاته الدَّعوية الكثيرة داخلَ المملكة وخارجَها، والَّتي كانت بغرَض الوعظ والإرشاد، والتَّعليم والإصلاح بينَ الدُّعاة والجماعات، والقيام ببعض الأعمال المرتبطة بالجامعة الإسلاميَّة، والمشاركة في الفعَّاليَّات الإسلاميَّة المختلفة؛ فقد زارَ رَحِمَهُ اللهُ بعض مدُن وقرى المملكة، ورحل إلى مصر، وسوريا، ولبنان، والعراق، وباكستان، والهند، والدُّول الأفريقيَّة، وأمريكا، وأوروبَّا، واستراليا، ونيوزيلندة، وماليزيا، وإندونيسيا، وسنغافورة، وبروناي، وسريلانكا... إلخ.

واشتغل في توعية الحجَّاج بصفة فرديَّة بعد سنوات من حجَّته الأولى عامَ 1365 هـ، ثمَّ بدأ عام 1392هـ المشاركة في برامج توعية الحجَّاج التَّابعة لرئاسة البحوث العلميَّة والإفتاء والدَّعوة والإرشاد، ولم ينقطع بفضل الله عن الحجِّ إلَّا سنةً واحدةً لسبب مرضِ أحد أفراد عائلته.

يقول الدُّكتور عاصم القَريُوتي: «لقد كان دَور الشَّيخ في التَّوعية الإسلاميَّة للحجِّ رائدًا وعظيمًا، وكان حكيمًا في آرائه ونظراته الثَّاقبة لعواقب الأمور، كما يشهد بذلك كلُّ مَن خالَط الشَّيخ، وشاركه في هذا العمل».

وعمل بعد التَّقاعد عن العمل الرَّسمي على إعادة بناء (دار الحديث) الَّتي ارتبط بها منذ بداية حياته العلميَّة، وكانت لها منزلةٌ رفيعةٌ عنده ورثها عن شيخه العلَّامة الجَليل الشَّيخ عبد الرَّحمن الأفريقي.

واستطاع بفضل الله ثمَّ بمكانته العلميَّة والاجتماعيَّة وعلوِّ همَّته مواصَلة العمل في المجمع الكبير، الَّذي يشتمل على المسجد، والمدرسة، والمكتبة، والشُّعبة، والمبنَى التِّجاري، وسكَن الزُّوَّار، وقاعة المحاضَرات، ومواقف السَّيَّارات.

والمجمَع الآن من أبرز المعالم العلميَّة بالمدينة النَّبويَّة، وحصل على جائزة المدينة في التَّصميم العمراني لعام 1418هـ.

وهو منذ عام 1371هـ مأذونٌ لعَقد الأنكحة، وكان يقوم بهذا العمل في المسجد النَّبوي، ويستَقبل لذلك النَّاس أيضًا في داره، ويُكرم وفادتهم دون مقابل.

وكان يُسهِم أحيانًا في حلِّ المشكلات الَّتي تقَع بين الأزواج، ويذكُر العلَّامة الشَّيخ عبد المحسن العبَّاد ـ فيما يتَّصل بعقد الأنكحة ـ أنَّ هذا من المجال الَّذي نفَع فيه الشَّيخُ النَّاسَ، وأحسَن فيه إليهم، وأنَّ له في ذلك طرائفَ ولطائفَ كثيرةً.

ويُعدُّ الشَّيخ من أبرز رجالات التَّربية والتَّعليم بمنطقة المدينة، وكان رَحِمَهُ اللهُ ضمن العشرة الَّذي كُرِّموا عام 1416هـ في حفل الرُّوَّاد الأوائل، الَّذي تمَّ برعاية صاحب السُّمو الملَكي الأمير عبدِ المجيد بن عبد العَزيز، وحُضور

(1) انظر ترجمته في مجلَّتنا القرَّاء في العدد (7).

معالي وزير التَّربية والتَّعليم، ونُخبة من رجالِ العلم والفِكر بالمملكة.

۞ أقوال العلماء عنه وثناؤهم عليه:

لقد أثنى العلماء كثيرًا على الشَّيخ رَحِمَهُ اللَّهُ؛ ومن ذلك قول العلاَّمة المحدِّث الشَّيخ عبد المحسن العبَّاد عنه في محاضرته بأنَّه الرَّجل العظيم، العالم النَّاصح الموجِّه، صاحب الأخلاق الكريمة، والصِّفات الحميدة. انتهى.

وكان الشَّيخ عمر رَحِمَهُ اللَّهُ؛ . كما ذكر الدُّكتور مَرزُوق الزَّهراني عميد كليَّة الحديث بالجامعة الإسلاميَّة . مدرسةً في خُلقه، وصلاحه، ومنهجه، وتقواه... إلخ.

وقال الشَّيخ المحدِّث الدُّكتور عبد الرَّحمن بن صالح محيي الدِّين عضو هَيئة التَّدريس في الجامعة الإسلاميَّة، وهو أحد طلاَّب الشَّيخ: «وتذكُّره، ونشرُ مآثره وفضائله أقلُّ شيءٍ فيه، مع الدُّعاء له بالمغفرة والرَّحمة والرِّضوان...».

وقال أيضًا: «والشَّيخ رَحِمَهُ اللَّهُ عالمٌ ربَّانيٌّ، ومُربٍّ فاضل، كتَب الله محبَّته، فهو تربَّى في رحاب النُّبوَّة حسًّا ومعنًى، وهو يربِّي على منهاج النُّبوَّة حسًّا ومعنًى، ما رأت عيناي مثله في فضله، وأدبه، وسَمته، وحِلمه، وتواضعه، وخلقه الكريم، وشمائله الفاضلة».

ووصف الدُّكتور القريوتي الشَّيخ . من خلال عمله معه في مركز السُّنَّة بالجامعة الإسلاميَّة . بقوله: «كانَ نعم المدير، ونِعم المربِّي، ومدرسةً في كلِّ خُلق من أخلاقه... قال: وما كان يمرُّ بي مجلسٌ معه إلاَّ وازدَدتُ حبًّا له وإعجابًا به».

أمَّا الرَّحَّالة الأستاذ الدُّكتور عبد الله القادري؛ فقد صحب الشَّيخ في جملة من أسفارِه، وأُعجِب به، وانسجَم معه، قال: «وذلك بسبب أخلاق الشَّيخ، وخِلاله الَّتي يقِلُّ وجودها في كثير من النَّاس؛ فهو قدوةٌ حسنةٌ، وبخاصَّةٍ في مجال الدَّعوة، ومخاطَبة النَّاس، والتَّعامل معهم».

وأجمل الدُّكتور القادري الصِّفات الَّتي عرفها في الشَّيخ ضمن كتاب سيصدُر له قريبًا بعنوان «في المشارق والمغارب»، وتأثَّر بوفاة الشَّيخ كثيرًا ورثاه بقصيدة؛ يقول في بعض أبياتها:

جلَّ المُصابُ وعمَّ الخَطب يا عُمر
فالأرضُ تنعاكَ والأفلاكُ والقمرُ

وروضةُ المصطفى . يا شيخَنا! . فقَدَت
ما كنتَ تبسُطُ من علمٍ وتختصِرُ

ونحنُ ننعاكَ للدُّنيا وواجبُنا
أن نرتضي ما به ما قَد أنزل القدَرُ

ويصف عضو مجلس الشُّورى الأستاذ الدُّكتور عبدُ الله عُسَيلان الشَّيخَ بقوله: «إنَّ كلَّ مَن عرف الشَّيخ يشهد له بسمُوِّ خُلقه، وطيبة قلبه، وصفاء نفسه، ونقاء سريرته، وحبِّه وتودُّده لكلِّ من يلقاه من محبِّيه...، وقد ملك عليه حبُّ المدينة النَّبويَّة شغافَ قلبه، وتعلَّق بالمسجد النَّبوي دارسًا، ثمَّ مدرِّسًا، واحتلَّ مكانةً مرموقةً بين أهل العلم وطلاَّبه، وهو شيخُ التَّدريس بالمسجد النَّبوي».

والشَّيخ عمر رَحِمَهُ اللَّهُ؛ كما ذكر الدُّكتور عبدُ الله الرُّحيلي . عضو هَيئة التَّدريس بكليَّة الدَّعوة بالمدينة . من العُلماء العاملين الَّذين شهد لهم القريبُ والبعيدُ، فقد أثَّر في النَّاس بأخلاقه الحميدة، وبدَعوته بمقاله، وحاله في المسجد النَّبوي، وخارجه.

۞ صلته بأهل العلم:

كان الشَّيخ عمر رَحِمَهُ اللَّهُ على صلة وثيقة بأهل العلم بالمدينة وخارجها، وممَّن كانت تربطُه علاقةٌ بهم: الشَّيخ عبد العزيز بن صالح آل صالح ت 1415هـ، والشَّيخ حمَّاد ابن محمَّد الأنصاري ت 1418هـ، وسماحة الشَّيخ عبد العزيز ابن باز ت 1420هـ، والشَّيخ محمَّد ناصر الدِّين الألباني ت 1420هـ، والشَّيخ عطيَّة محمَّد سالم ت 1420هـ، والشَّيخ محمَّد ثاني بن علي، والشَّيخ عبد الحميد عبَّاس، والشَّيخ محمَّد ابن أحمد أبو حسين، والشَّيخ عبد المحسن العبَّاد، وغيرهم.

وصِلته بسماحة الشَّيخ الإمام ابن باز كانت قويَّةً جدًّا، ودعمها التَّوافُق في المنهج والهَدف؛ فكلاهما كان على منهج السَّلف الصَّالح، وعقيدة أهل السُّنَّة والجماعة، وقد نذَر كلٌّ منهما نفسَه لخدمة الإسلام والمسلمين، ابتغاءَ الأجر والمثوبَة من الله . عزَّ وجلَّ .. وقد تتبَّعتُ بعض الرَّسائل البريديَّة الَّتي كانت بين والدِي والشَّيخ ابن باز، وتعجَّبتُ من العلاقة الخيريَّة الَّتي تكوَّنَت بينهما مع مرور الوقت؛ بحيث أصبح كلُّ واحدٍ منهما يدرك المعاني الخفيَّة لخطابِ الآخر، ولم يكتب والدِي . بفضل الله . إلى الشَّيخ في أمر صاحب حاجة إلاَّ وجاء الرَّدُّ بالإيجاب، وقد يوكل الأمرَ في التَّصرُّف جملةً إلى والدي.

وكانت صلته رَحِمَهُ اللَّهُ أيضًا بالشَّيخ الإمام الألباني وطيدَةً؛ فكان يُجلُّ الشَّيخ الألباني، ويعرف قدرَه، ويسعَدُ بصُحبته، ويأنَس لسماع حديثه، ويسأل عنه إذا بعُدت أخبارُه، ويعجَب بتواضع الشَّيخ، وبساطته، وصبره، وعلوِّ همَّته في البحث والتَّأليف، وخدمة السُّنَّة المطهَّرة، وكان بين الشَّيخين من الوُدِّ، والتَّقارُب، والصَّفاء النَّفسي الشَّيءُ الكثير، ومعهما في ذلك الشَّيخ العالم محمَّد بن عبد الوهَّاب البَنَّا، المعروف

بمدينة جدَّة، واعتاد المشايخ الثَّلاثة الخروج عند اللِّقاء - أحيانًا - للنُّزهة في وادي العَقيق، أو سدِّ العَاقُول، أو بئر رُومَة، وأثنى الشَّيخُ الألباني على الشَّيخ عمر في حُسن جِواره، وطيب أخلاقه، وتمسُّكه بالعقيدة السَّلَفيَّة، وكانت مجالس الشَّيخ الألباني عندَما ينزل ضيفًا على الشَّيخ عمر عامرةً بطلاَّب العلم، مفتوحةً خلال تلك الفترة للجميع مع الإكرام والتَّبجيل.

عقيدته ومذهبه الفقهي:

كان الشَّيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ صاحبَ عقيدة سلفيَّة، يَدينُ بعقيدة السَّلف، ويسلُكُ طريقَهم في الاستدلال، وكان يكرَه الطُّرق المحدَثة، والمناهج المبتدَعة.

يقول العلاَّمة عبد المحسن العبَّاد: «كان الشَّيخ عمر رَحِمَهُ ٱللَّهُ على عقيدة السَّلف ومنهجهم، ملتزمًا بما جاء عن الله، وعن رسوله ﷺ، حريصًا على معرفة الدَّليل، واقتفاء آثار السَّلف الصَّالح، وكان يكرَه المناهج المخالفة لطريقة السَّلف الصَّالح.

وكتب الشَّيخ الدُّكتور محمَّد الحبيب ابن خُوجة - الأمين العام لمجمع الفقه الإسلامي - كلمات عن الشَّيخ قال فيها: «كان يعتقدُ بعقيدة السَّلف ومنهجهم، يعملُ في الفقه على اقتفاء آثارهم، حريصًا على معرفة الحُكم بالدَّليل، دون تكلُّف التَّعليل».

واعتنى الشَّيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ بموطَّأ الإمام مالك، ودرَّسه في الحرم النَّبوي لبعض طلاَّبه، وقال الشَّيخ الهواري ابن سليمان مَجذُوب الجزائري - أحد المدرِّسين في دار الحديث بالمدينة النَّبويَّة -: «كان الشَّيخ - مع تمسُّكه بالحديث - يميل إلى مذهب الإمام مالكٍ إمام دار الهجرة، ولقد أشار عليَّ يومًا وشجَّعني على تدريس موطَّأ الإمام مالك، ورسالة ابن أبي زيد القَيرواني».

عدد حجَّاته:

حجَّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ حجَّة الإسلام عام 1365هـ، ثمَّ استمرَّ في الحجِّ كلَّ سنة، إلى آخر حجَّة له سنة 1418هـ، ولم يفُتهُ الحجُّ إلاَّ سنةً 1367هـ، كان سبب تخلُّفه عنه تمريضُ مريض كان عنده، وبلغَت عدد حجَّاته ثلاثًا وخمسين حجَّةً.

من حلمه ولطائفه:

كان رَحِمَهُ ٱللَّهُ صبورًا، حليمًا رفيقًا، طيِّب العشرة، يصبر على الأذَى، ويُدخل السُّرور على إخوانه، وطلاَّبه، ويمازحهم من حينٍ إلى آخَر، ومن ذلك قولُه لأحد تلاميذه - وكانت عنده زوجتان، وكان يدرِّس في كلِّيَّتَين -: «زَوجتَين، والسَّكن في القبلتَين، والتَّدريس في الكلِّيَّتَين».

ومرَّةً دخل الشَّيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ على موظَّف في إدارة حكوميَّة في حاجة من الحاجات، ولم يقُم الموظَّف بتيسير أمر الشَّيخ، وكان الشَّيخ هو الَّذي عقَد النِّكاح لوالد هذا الموظَّف على أمِّه، فما كان منه إلاَّ أن قال: «هذا ابنُ فلان؟! هذا الَّذي عقَدتُ لأبيه على أمِّه! أنا الَّذي أخطأت لما عقَدتُ لأبيه على أمِّه»، فضحك النَّاس، وقام الموظَّف فورًا بخِدمته وإنهاء حاجَته.

ومن حِلمه؛ أنَّه دخل عليه رجلٌ في دار الحديث، وهو غَضبان، وارتفَع صوتُه، وما زاد الشَّيخ على التَّبسُّم والرِّفق والكلام بهدوء، وأراد رجلٌ من الحضور إخراجَه، فقال له الشَّيخ: «الأمرُ لي، وليس لك».

وفاته:

لقد حقَّق اللهُ لهذا العالم النَّاصح المحبوب أُمنيته بالوفاة في المدينة؛ إذ كان يعالجُ في المستشفى التَّخصُّصي بمدينة الرِّياض، وأذن له الأطبَّاء بالخروج، فأصَرَّ على العَودة إلى المدينة مباشرةً من المستشفى يوم الثُّلاثاء، ووافاه الأجل المحتوم صبيحة يوم الأربعاء الموافق للتَّاسع والعشرين من شهر ذي القعدة عام 1419هـ، وصُلِّي عليه في المسجد النَّبوي بعد صلاة العصر، ودُفِنَ في بقيع الغَرقد.

وكانت جنازتُه عظيمةً مشهودةً؛ شهدها العلماءُ والقضاةُ، وأساتذةُ الجامعات، وعددٌ كبيرٌ من الأصحاب، والطُّلاَّب، والمحبِّين، والحجَّاج.

رَحم اللهُ الشَّيخَ عُمرَ فلاَّته رحمةً واسعةً، وأسكنه فسيحَ جنَّاته، وجزاه لقاءَ ما قدَّم للإسلام والمسلمين خيرَ الجزاء آمين.

ينظر لترجمته:

- «كوكبة من أئمة الهدى ومصابيح الدجى» للدُّكتور عاصم القريوتي.
- «علماء ومفكِّرون عرفتهم» للشَّيخ محمَّد المجذوب رَحِمَهُ ٱللَّهُ.
- «الشَّيخ عمر فلاَّته وكيف عرفته» للعلاَّمة عبد المحسن بن حمد العبَّاد البدر.
- «لمحات عن المدينة النَّبويَّة» للعلاَّمة عمر فلاَّته، تقديم د.عاصم بن عبد الله القريوتي.
- «الوقفات اللَّطيفة في التَّعريف بمحدِّث الرَّوضة الشَّريفة» للدُّكتور حياتو بن محمَّد جبريل.
- «الشَّيخ عمر بن محمَّد فلاَّته محدِّثًا» للدُّكتور خالد مرغوب الهندي.
- «العالم الرَّبَّاني عمر بن محمَّد الفُلاَّني» أعدَّه حمزة بن حامد بن بشير القَرعاوي.

أسئلة متعلقة ببعض آيات القرآن

أجاب عنها العلامة المحدث محمد حياة السندي المدني

أخبار التراث

اعتنى به: علي بن أحمد الكندي المرر

الإمارت العربية المتحدة

إنَّ الله ـ عزَّ وجلَّ ـ أنزل القرآن العظيم على الرَّسول الكريم ﷺ: ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ۝١٩٥﴾ [سُورَةُ الشُّعَرَاءِ]، هدىً ورحمةً للعالمين، وأودع فيه ـ سبحانه وتعالى ـ العلم والنُّور، وجعله تبيانًا لكلِّ شيء، قال تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ۝٨٩﴾ [سُورَةُ النَّحْلِ].

ولَّما عرف المسلمون حقَّ هذا القرآن وعظم شأنه، أحاطوه بالعناية التَّامَّة، فاعتنوا به عناية لم يحظ بها كتاب من قبله، ففسَّروا آياته، وبيَّنوا معاني كلماته، وأوضحوا ما أشكل على النَّاس منه، إلاَّ أنَّه ما زالت بعض آياته تشكل على كثير من النَّاس، قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «إنَّ القرآن فيه ما هو بيِّن بنفسه، وفيه ما قد بيَّنه المفسِّرون في غير كتاب، ولكن بعض الآيات أشكل تفسيرها على جماعة من العلماء، فربَّما يطالع الإنسان عليها عدَّة كتب ولا يتبيَّن له تفسيرها، وربَّما كتب المصنِّف الواحد في آية تفسيرًا ويفسر غيرها بنظيره»[1].

ومازال أهل العلم يؤلِّفون في تفسيره ويجيبون في فتاويهم على ما أشكل منه، منهم العلاَّمة المحدِّث محمَّد حياة السِّندي المدني رَحِمَهُ اللهُ، فقد أدلى بدلوه وشارك بعلمه حرصًا منه على نشر العلم وبيانه بأوضح بيان، فأودع كلامه في هذه الرِّسالة الَّتي نقدمها اليوم للقرَّاء الكرام وطلبة العلم، وهي رسالة تحتوي على إجابات العلاَّمة السِّندي على أسئلة وردت عليه مأخوذة من «أمالي» العزِّ ابن عبد السَّلام، متعلِّقة ببعض آيات القرآن؛ كما قال الشَّيخ في مطلع رسالته، ويظهر من الأسئلة أنَّ السَّائل أشكل عليه فهم تلك الآيات، وظنَّ أنَّ في ظاهرها اختلافًا، فأجاب عنها الشَّيخ بنقله من كتب علماء التَّفسير كما ستراه في نصِّ الرِّسالة، والله الموفِّق.

❁❁❁

❁ ترجمة العلامة السِّندي[2]:

□ هو المحدِّث العلاَّمة محمَّد حياة بن إبراهيم السِّنْدِي المدني، يرجع نسبه إلى قبيلة «جاجر»، وهم قوم من أهل السِّند.

□ ولد السِّندي في بلدة «عادلفور» ونشأ فيها، ولم تذكر المصادر تاريخ مولده، ثمَّ انتقل بعد ذلك إلى مدينة «تته» قاعدة بلاد السِّند، وبدأ يدرس على علمائها وفضلائها ثمَّ هاجر إلى الحرمين الشَّريفين، فحجَّ ثمَّ بعد ذلك توطن المدينة النَّبويَّة الَّتي كانت ملتقى العلماء وطلاَّب العلم من مختلف الأقطار الإسلاميَّة.

□ فلازم الشَّيخ الكبير أبا الحسن محمَّد بن عبد الهادي السِّندي التَّتوي المدني المتوفَّى سنة (1139هـ) صاحب الحواشي على دواوين السُّنَّة السِّتَّة، وأخذ عنه، وأخذ الإجازة عن الشَّيخ عبد الله بن سالم البصري المكِّي، وبرع في علوم شتَّى منها: الحديث والفقه والأصول والتَّفسير والعقيدة، وقد حُبِّب الله إليه العملَ بالحديث الشَّريف.

وجلس مجلس الشَّيخ أبي الحسن السِّندي بعد وفاته أربعًا وعشرين سنة يدرِّس الحديث.

(1) «العقود الدُّرِّيَّة» لابن عبد الهادي (ص21).

(2) ترجمته في: «الإعلام بما في الهند من الأعلام» للشَّريف الحسني (815)، وعنوان «المجد» لابن بشر (41/1)، و«سلك الدُّرر» للمرادي (34/4)، و«أبجد العلوم» لصدِّيق خان (169/3).

□ قال عنه صدِّيق حسن خان: «كان من العلماء الرَّبَّانيِّين وعظماء المحدِّثين، قرن العلم بالعمل، وزان الحسن بالحلل».

وقال الكتاني: «حامل لواء السُّنَّة بالمدينة المنوَّرة».

وقال ابن بشر: «كان له اليد الطُّولى في معرفة الحديث وأهله ومحبته».

□ درس عليه خلق كثير منهم: الشَّيخ المجدِّد محمَّد ابن عبد الوهَّاب التَّميمي، والشَّيخ علي بن صادق الدَّاغستاني، والعلاَّمة الأمير محمَّد بن إسماعيل الصَّنعاني، والشَّيخ أبو الحسن محمَّد صادق السِّندي الصَّغير.

□ صنَّف الشَّيخ رسائل كثيرة منها:

شرح كتاب «التَّرغيب والتَّرهيب» للمنذري، و«تحفة المحبِّين شرح الأربعين» للنَّووي، و«شرح الأربعين حديثًا من جوامع الكلم» لعلي القاري[3]، و«فتح الغفور في وضع الأيدي على الصُّدور»، و«إرشاد النُّقَّاد إلى تيسير الاجتهاد»، و«رسالة في حكم إعفاء اللحى»[4]، و«أجوبة عن أسئلة متعلِّقة ببعض آيات القرآن»، وهي رسالتنا هذه.

□ وفاته:

توفي الشَّيخ رحمه الله يوم الأربعاء السَّادس والعشرين من شهر صفر سنة (1163هـ) في المدينة النَّبويَّة، ودفن في البقيع، فرحمه الله تعالى وأسكنه جنَّته.

❁❁❁

❁ وأمَّا النُّسخة الخطِّيَّة لهذه الرِّسالة:

فهي مصوَّرة لديَّ عن أصلها المحفوظ بالمكتبة الوطنيَّة بالجزائر ـ حرسها الله تعالى ـ، صوَّرتها عندما سافرت إلى الجزائر في شهر شوَّال سنة (1424هـ) الموافقه (2003/12م)، وهي نسخة كاملة، خطُّها نسخيٌّ واضح القراءة، منسوخة في حياة المؤلِّف سنة (1159هـ)، وناسخها مصطفى بن عبد الله، كما جاء في آخرها، وتحتوي المخطوطة على ثلاثة لوحات، في كلٍّ لوحة وجهان.

❁❁❁

صورة الوجه الأوَّل من المخطوطة

❁❁❁

صورة الوجه الأخير من المخطوطة

(3) وقد قمت بتحقيقه ونشره، وحقَّقه كذلك شيخنا الفاضل الدُّكتور عبد المجيد جمعة الجزائري.

(4) وهي مطبوعة بتحقيق الدُّكتور عبد المجيد جمعة الجزائري حفظه الله.

❁ وإليك نصُّ الرِّسالة:

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ
وصلَّى الله على سيِّدنا محمَّدٍ وعلى آله

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سبحانك لا علم لنا إلاَّ ما علَّمتنا إنَّكَ أنت العليمُ الحكيم، وصلِّ وسلِّم على حبيبك ذي الخُلقِ العظيم، وآلهِ وصحبهِ ذوي الفضلِ الجسيم.

أمَّا بعد،

فقد عرَض عليَّ بعضُ أجلاَّءِ أهلِ طيبة أسئلةً منقولةً عن «أمالي»[5] العزِّ بن عبد السَّلام[6]، متعلِّقة ببعضِ آياتِ القرآن[7]، وأحب أنْ أذكرَ الجواب عنها:

الأوَّل: قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُواْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [البقرة: 11]، ما نكتة قوله: ﴿فِي ٱلْأَرْضِ﴾؟ وليس هذا مثل قوله: ﴿وَمَا لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ۝٧٤﴾ [سورة التوبة]؛ لأنَّ معناهُ في الأرضِ كلِّها، فلو لم يأتِ به لاحتمل أنْ يكون خاصًّا ببعض الأرض.

□□□

والثَّاني: قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ﴾ [البقرة: 260]، اللهُ تعالى عالمٌ بإيمانه، فما فائدةُ الاستفهامِ؟

□□□

الثالث: قوله تعالى: ﴿لَآ أُحِبُّ ٱلْأٓفِلِينَ ۝٧٦﴾ [سورة الأنعام] مشكل؛ لأنَّ الدَّال على عدم الألوهيَّة إنْ كان المتغيّر، فقد وُجِد قبل الأفول فلا معنى لاختصاصه.

□□□

الرابع: قوله تعالى: ﴿إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَآئِفَةً﴾ [التوبة: 66]، كيف يصحُّ أنْ يكونَ ﴿نُعَذِّبْ طَآئِفَةً﴾، جوابَ الشَّرط؟ وعذاب طائفة لا يتوقَّف على العفو عن الأخرى، وكيف يقدَّر الجواب؟

□□□

الخامس: قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ﴾ [يونس: 5]، فجعل العدد والحساب معلولاً للمنازل، مع أنَّه لا يفتقر معرفة هذين لكون القمر مقدَّرًا منازل، بل طلوعه وغروبه كافٍ.

□□□

السَّادس: قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [يونس: 37]، فيه إشكال؛ لأنَّ العرب إذا أرادوا أنْ يُخبروا بالمصدرِ مع قطع النَّظر عن الزَّمان، قالوا: أعجبني قيامك، وإنْ أرادوا أنْ يُخبروا بأنَّ ذلك المصدر كان في الماضي، قالوا: أعجبني أنْ قمتَ، فإذا أرادوا المستقبل قالوا: أنْ تقوم، وهو معنى قول النُّحاة: «أنْ» تخلِّصُ الفعل للمستقبل، إذا تقرَّر ذلك، المشركون قالوا: هذا القرآن افتري أي: في الزَّمن الماضي، فكيف ينفى افتراؤه في الزَّمن المستقبل؟

□□□

السَّابع: قوله تعالى حكاية عن موسى: ﴿وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ [يونس: 88]، مشكل؛ لأنَّه طلبَ أنْ يشدَّ بها قلوبهم حتَّى لا يدخلها الإيمان، والطَّلبُ مستلزمٌ للإرادة، فكيف يطلبُ ويريدُ ما أمرَ اللهُ أنْ يكرَهَهُ منهم؟ وليس مثل قوله حكاية عن نوح: ﴿وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا ضَلَٰلًا ۝٢٤﴾ [سورة نوح]؛ لأنَّ نوحًا قيل له: ﴿أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ﴾ [هود: 36]، فيئس من إيمانهم، بخلاف موسى عليه السلام.

□□□

الثَّامن: قوله: ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ﴾ [النحل: 17] مشكل؛ لأنَّ قاعدة التَّشبيه أنْ يكون المشبّه دون المشبّه به، وهذا ورد إنكارًا عليهم في تشبيههم الأصنام بالله عزَّ وجلَّ، كقوله: ﴿يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: 165]، فكان ينبغي أنْ يقال: أفمن لا يخلق كمن يخلق، ولا يقال: إنَّهم كانوا يعظِّمون الأصنام أكثر من تعظيم الله؛ لأنَّ الأمر ليس كذلك بل قال: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا

(5) ذكر محقِّق كتاب «القواعد الكبرى» في مقدِّمته (ص28)، أنَّه لم يطبع بعد، وأنَّ له عدَّة نسخ خطيَّة ثمَّ ذكرها.

(6) هو أبو محمَّد عزُّ الدِّين عبد العزيز بن عبد السَّلام السُّلمي الشَّافعي المتوفَّى سنة (660هـ)، ترجمته في «العبر» للذَّهبي (260/5)، و«طبقات الشَّافعيَّة الكبرى» للسُّبكي (209/8).

(7) وقد نشر الدُّكتور سيِّد رضوان النَّدوي الفوائد المتعلِّقة بالقرآن من هذه الأمالي بعنوان: «فوائد في مشكل القرآن».

﴿لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر: 3]، ولا يتمُّ لنا في هذه الآية الجواب الَّذي في قوله: ﴿أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ۝٣٥﴾ [سورة القلم].

□□□

التَّاسع: قوله تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [الأنعام: 164]، فيه سؤال، وهو أنَّ عدم تحمُّل فعل الغير عام في النَّفس الآثمة وغير الآثمة، فلِم خُصَّ بالآثمة مع أنَّ التَّصريح بالعموم أتمُّ في العدل وأبلغ في البشارة وأخصر في اللَّفظ، كما لو قيل: لا تحمل نفس حمل أخرى.

□□□

العاشر: قوله تعالى: ﴿فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِى ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ۝١١﴾ [سورة الكهف]، أي: ذوات عدد، ومعلوم أنَّ السِّنين لا تكون إلاَّ ذوات عدد، فما فائدة ذكره؟

□□□

الحادي عشر: قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾ [طه: 124]، مع قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى مَنْ أَسْرَفَ﴾ [طه: 127]، لأنَّ من أسرف اندرج فيمن أعرض؛ لأنَّ المعرض أعمّ من المسرف، فيلزم إمَّا تشبيه الشَّيء بنفسه إنْ بقي من أعرض على عمومه، أو تشبيه الأعلى بالأدنى إنْ كان قد خُصَّ؛ لأنَّ المسرف أعظم ذنبًا من المعرض، وكلاهما مشكل، انتهى.

❁❁❁



❁ **الجواب:**

عن الأوَّل: أنَّ نكتته الإعلام أنَّ ضررَ إفسادهم متعدٍّ إلى غيرهم، وليس منحصرًا عليهم، ولو قيل: لا تفسدوا، لاحتمل أن يكون معناه: لا توقعوا الفساد على أنفسكم، ونحوه قوله تعالى: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا﴾ [الأعراف: 56].

قال البيضاوي[8]: «وكان من فسادهم في الأرض تهييج الحروب والفتن، بمخادعة المؤمنين وممالاة الكافرين عليهم بإفشاء الأسرار إليهم، فإنَّ ذلك يؤدِّي إلى فساد ما في الأرض من النَّاس والدَّوابّ والحرث، ومنه إظهار المعاصي والإهانة بالدين»[9]، والله أعلم.

□□□

وعن الثَّاني: بما أشار إليه البيضاويّ[10] بقوله: «قال له ذلك وقد علم بأنَّه أعرف النَّاس إيمانًا؛ ليجيب بما أجاب، فيعلم السَّامعون غرضه»، والله أعلم.

□□□

وعن الثَّالث: أنَّه لم يكن مقصوده من الاستدلال بالتَّغيُّر على عدم الألوهيَّة تحصيل يقين نفسه؛ لأنَّه كان موقنًا قبل ذلك بحقيقة ألوهيَّة الله تعالى، وبطلانيَّة ألوهيَّة غيره، وإنَّما أراد بذلك إرشاد قومه الأغنياء بهذا الطَّريق الواضح إلى أنَّ مثل هذا الآفل لا يستحقُّ أن يكون إلهًا، قال البيضاويّ[11]: «وإنَّما احتجَّ بالأفول دون البزوغ، مع أنَّه أيضًا انتقال؛ لبعد[12] دلالته، أو لأنَّه رأى الكوكب الَّذي يعبدونه في وسط السَّماء حين حاول الاستدلال».

□□□

وعن الرَّابع: أنَّ التَّقدير إنْ نعْفُ عن طائفة منكم لاتِّصافهم بما يوجب العفوَ عنهم، فلا تغترَّ الطَّائفة الَّتي لم تتَّصف به، فتستدلَّ بعفوهم على عفوها، فإنَّا نعذِّبهم لاتِّصافهم بما يوجب العذاب، والحاصل أنَّ قوله: ﴿نُعَذِّبْ﴾، علَّة جزاء أقيمت مقامه وله نظائر.

□□□

وعن الخامس: بما أشار إليه أبو السُّعود[13] في «تفسيره»

(8) هو القاضي ناصر الدِّين عبد الله بن عمر بن محمَّد البيضاوي الشَّافعي المتوفَّى سنة (685هـ).
(9) في «تفسير البيضاوي» (أنوار التَّنزيل) (169/1).
(10) في «تفسيره» (562/1 ـ 563).
(11) في «تفسيره» (424/2).
(12) كذا في الأصل، وفي «تفسير البيضاوي»: لتعدد، وهو الأظهر.
(13) هو أبو السُّعود بن محمَّد العمادي الحنفي المتوفَّى سنة (982هـ)، واسم تفسيره: «إرشاد العقل السَّليم إلى مزايا الكتاب الكريم»، انظر: «كشف الظُّنون» (65/1).

بقوله: «﴿لِتَعۡلَمُواْ﴾ إمَّا بتعاقب اللَّيل والنَّهار المنوطين بطلوع الشَّمس وغروبها، أو باعتبار نزول كلٍّ منهما في تلك المنازل، ﴿عَدَدَ ٱلسِّنِينَ﴾ الَّتي يتعلَّق بها غرض علمي لإقامة مصالحكم الدِّينيَّة والدُّنيويَّة، ﴿وَٱلۡحِسَابَ﴾، أي: حساب الأوقات من الأشهر والأيام»[14].

قلت: أي: على وجه أسهل مع ما يترتَّب عليه منافع المعاش، أو لتعلموا عدد السِّنين الشَّمسيَّة والقمريَّة، وحساب الشُّهور الشَّمسيَّة والقمريَّة، والنَّاقصة والكاملة وما يتعلَّق بذلك، والله أعلم.

▪▪▪

وعن السَّادس: إنَّ لفظ كان يأتي لاستمرار الخبر لاسمه، وهو المراد هاهنا، فسلب اقتضاؤه استمرار خبره لاسمه، وتخليص «أنْ» الفعل للمستقبل، ونحوه قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ﴾ الآية [الشورى : 51]، والله أعلم.

▪▪▪

وعن السَّابع: بما ذكره شيخ الإسلام خواهر زاده[15] في «السِّير»: «أنَّ الرِّضا بكفر الغير إنَّما يكون كفرًا إذا كان يستجيز الكفر أو يستحسنه، أمَّا إذا كان لا يستجيزه ولا يستحسنه، ولكن أحبَّ الموت أو القتل على الكفر لمن كان شريرًا مؤذيًا بطبعه حتَّى ينتقم الله تعالى منه، فهذا لا يكون كفرًا، ومن تأمَّل قول الله تعالى: ﴿رَبَّنَا ٱطۡمِسۡ﴾ إلى آخره [يونس : 88]، يظهر له صحَّة ما ادَّعيناه»، كذا في «جامع الفصول».

قلت: ولا شكَّ أنَّ موسى كليم الله تعالى ـ عليه الصَّلاة والسَّلام ـ لم يدعُ بهذا الدُّعاء إلاَّ وقد علم عدم إيمانهم واستمرارهم على الطُّغيان والكفر، إمَّا بوحي أو بإلهام من الله، فدعا كما علم نوح ذلك، وعلم أنَّ الله راض به، وأنَّه يحبُّ عذابهم على كفرهم.

▪▪▪

وعن الثَّامن: بما أشار إليه البيضاويّ[16]، وأوضحه أبو السُّعود[17] بقوله: «ومدار المشابهة وإنْ كان على تشبيه غير الخالق بالخالق، لكنَّ التَّشبيه حيث كان نسبة تقوم بالمنتسبين، اختير ما عليه النَّظم الكريم، مراعاةً لحقِّ سبق الملكة على العدم، وتفاديًا عن توسيط عدمها بينها وبين جزئيَّاتها المفصّلة قبلها، وتنبيهًا على كمال قبح ما فعلوه، من حيث إنَّ ذلك ليس مجرَّد رفع الأصنام عن محلِّها، بل هو حطٌّ بمنزلة الرُّبوبيَّة إلى مرتبة الجمادات، ولا ريب أنَّه أقبح من الأول»، والله أعلم.

▪▪▪

وعن التَّاسع: بأنَّ ذكر وازرة أبلغ في نفي نسبة الجور إلى الحقِّ، وأوضح دلالة على العدل؛ لأنَّه إذا لم يؤاخذ نفسًا آثمة بوزر أخرى مع أنَّها مبغوضة مسخوطة، فأحرى أنْ لا يؤاخذ نفسًا مطيعةً بوزر أخرى، ولو قيل: لا تحمل نفس وزر أخرى، لم يستفد هذه النُّكتة فتأمَّل، والله أعلم.

▪▪▪

وعن العاشر: بما أشار إليه البيضاوي[18]، وأوضحه أبو السُّعود[19] بقوله: «ووصف السِّنين بذلك إمَّا للتَّكثير، وهو الأنسب بإظهار كمال القدرة، أو للتَّقليل، وهو الأليق بمقام إنكار كون القصَّة عجبًا من بين سائر الآيات العجيبة، فإنَّ مدَّة لبثهم كبعض يوم عنده»، والله أعلم.

▪▪▪

وعن الحادي عشر: بأنَّ المعنى هذا الجزاء الموافق للجناية، والكاف في كذلك مقحمة زيدت لتحسين العبارة والتَّأكيد[20]، وله نظائر في القرآن، منها قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ فِي ظِلَٰلٖ وَعُيُونٖ ۝٤١ وَفَوَٰكِهَ مِمَّا يَشۡتَهُونَ ۝٤٢ كُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ هَنِيٓـَٔۢا بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ۝٤٣ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ۝٤٤﴾ [سورة المرسلات].

قال شيخ زاده[21] في «حاشية البيضاوي»: «وقد تقرَّر أنَّ الكاف الَّذي بمعنى المثل في «كذلك» تكون مقحمة للتَّأكيد، كما يزاد لفظ المثل في قولهم: «مثلك لا يبخل»»، والله أعلم بالصَّواب.

▪▪▪

قال مؤلِّفه: كتبه محمَّد حياة السِّندي المدني، عفى الله تعالى عنه، انتهى كلامه.

▪▪▪

وأنا الفقير إلى الله مصطفى بن عبد الله، نقلت هذه من خطِّه الشَّريف بواسطتين في الجزائر المحميَّة عن الآفات والبليَّة، وقد تشرَّفتُ مع الشَّيخ المذكور قبل ذلك بسنتين بمكَّة المشرَّفة زادها الله شرفًا وتعظيمًا ومهابًا سنة (1159).

(14) «تفسير أبي السُّعود» (120/4).

(15) المشهور بهذه النِّسبة عند الإطلاق اثنان، وهما: أبو بكر محمَّد ابن حسين البخاري الحنفي، المتوفَّى سنة (483هـ)، والإمام بدر الدِّين محمَّد بن محمود الكردي الحنفي المتوفَّى سنة (651هـ)، انظر «الجواهر المضيَّة» (183/2)، (141/3، 362).

(16) في «تفسيره» (391/3).

(17) في «تفسيره» (104/2).

(18) في «تفسيره» (478/3، 479).

(19) في «تفسيره» (207/5).

(20) قال د. عبد الله دراز في «النَّبأ العظيم»: «دع عنك قول الَّذي يقول في بعض الكلمات القرآنيَّة: إنَّها مقحمة، وفي بعض حروفه: إنَّها زائدة زيادة معنوية». نقلا عن مناهل العرفان للزرقاني (256/2).

(21) العجمي الحنفي المتوفَّى سنة (807هـ)، انظر ترجمته في «شذرات الذَّهب» (200/7) لابن العماد.



قطف الثمره من مثل العرجون والتمره

كتاب المباني

محمد بوسلامة

إنِّي كنت قد شرحت بعضَ الأمثال الشَّعبيَّة السَّائرة في بلاد الجزائر، الجاريَّة على ألسنة النَّاس، شرحًا مستفيضًا، بعضه يرجع إلى المباني، وبعضٌ إلى المعاني.

وإنَّ لي في ذلك مقاصد، منها بيان صلة الدَّارجة بلغة العرب، وفي ذلك شحذ للعزائم، وتنبيه للنَّائم، ومنها تهذيب كلام العامَّة والارتقاء به عن الدَّارجة المنحطَّة الَّتي لا ترقى إلى أن تكون أدبًا أو أن يتمَّ بها حوار على أكمل الوجوه.

وقد آن لحماة العربيَّة والدَّارجة أن يَنْفِروا لدفع الدَّخيل الصَّائل من ألفاظ المسخ اللُّغوي المورث لفقر اللِّسان وعجز البيان، وأن يحلُّوا بِرُقَاهُم ما عَقَدَتْهُ النَّفَّاثات في العقد النَّفسيَّة والاجتماعية.

ومن مقاصدي حفظ الموروث الثَّقافي والتَّليد الأدبي المشتمل على فنون اللُّغة والحكمة الممتزج بتاريخ وأيَّام أهل القُطر، وإنَّ من غبن الفتى أن تَضيع عليه مواريثُ مجده، وقد قُلْتُ في قصيدة تصبُّ في هذه المعاني:

ولست أرى في فتية القوم تاعسا
كمن كان للمجد القديم مضيعا
ولم أر مجهول النِّجار مسوَّدًا
ولم أر غصنا بان ثُمَّتَ أينعا

ولا شكَّ أنَّ تذكير الأبناء بمناقب الآباء له أصل في الشَّريعة تشهد له نصوص كثيرة، ولقد سرحت الفكر في قوله ـ عليه الصَّلاة والسَّلام ـ: «ارْمُوا بَنِي إِسْمَاعِيلَ فَإِنَّ أَبَاكُمْ كَانَ رَامِيًا»، فوجدته أصلاً في الباب؛ فإنَّه ـ عليه الصَّلاة والسَّلام ـ قاله لنفر من أصحابه مرَّ عليهم وهم يرمون، فقال لهم ذلك، ولم يقل لهم: إنَّ أباكم كان نبيًّا أو تقيًّا أو غير ذلك من المناقب، وإنَّما وصفه لهم بما يناسب ما هم عليه من الرَّمي، فأخبرهم بأسلوب التَّهييج أنَّ أباهم كان راميًا لتتحرَّك فيهم عزائم الاقتداء بأبيهم، وهذا أمر قد جُبل عليه النَّاس، وسلكه في تربية النُّفوس سيِّدُ النَّاس، فهي سُنَّة تربويَّة ينبغي أن يسير عليها المصلحون والمربُّون لأبنائنا في كلِّ الميادين الدِّينيَّة والدُّنيويَّة، فيذكِّرونهم بمن حاز قصب السِّباق من آبائهم السَّالفين في علوم الشَّريعة والأدب وفي العلوم الكونيَّة وما اتَّصل بها من الصِّناعات والحِرَف، ويسمُّونهم لهم بأسمائهم ليعرفوهم، وقد فطن لهذا علماؤنا من قديم الزَّمان؛ فألَّفوا كتب التَّراجم وترجموا للمحدِّثين والفقهاء وغيرهم من علماء الشَّريعة والأدب، وترجموا للأطبَّاء وغيرهم من أصحاب الصِّناعات، فارموا بني قومي فإنَّ آباءكم كانوا رماة.

وإنَّ من مقاصد هذه الشُّروح حملَ النَّاس على مكارم الأخلاق ومحاسن العادات، وإنِّي كلَّما أجريت أفراس الخواطر في قنص الأمثال؛ تكاثر عليَّ الصَّيد وصدق عليَّ قول القائل:

تكاثرت الظِّباء على خراش
فما يدري خراش ما يصيد

بيد أنَّني أختار أدخل الأمثال في الطَّبائع وألصقها بالواقع، وعلى هذا الميزان بدَا لي أنْ أشرح قول المثل السَّائر:

«كِي كَانْ حَي مشْتَاق تَمْرَة وكِي مَات عَلْقُولُ عرْجُون».

وهو من الأمثال الَّتي يفهمها كلُّ من سمعها من أهل البلاد الجزائريَّة؛ لكونه مشهورًا، ولأنَّ ألفاظه جارية على ألسنة النَّاس، فيفهمه الكبير والصَّغير، كلٌّ على قدر عقله وإدراكه.

وقد كنَّا نسمع هذا المثل أزمان الصِّغر، فنفهمه بقدر عقولنا على مقتضى الألفاظ، فلمَّا كبرنا أدركنا أنَّ قوس الحكيم تَرْمِي في مكان بعيد، وما سيق المعنى القريب إلاَّ لأجله، وبيانه في كتاب المعاني.

وإنَّما القصد هنا هو الكلام على المباني، وقد طالت ذيول المقدِّمة، وهذا أوان الشُّروع في المقصود، فأقول:

■ **قوله: «كي»:** هذه اللَّفظة تجيء في الدَّارجة بكافٍ مكسورةٍ

ممدود ما بعدها، وقد يُظنُّ أنَّها «كي التَّعليليَّة» غير أنَّها لا يمكن حملها في المثل على هذا المعنى، وتكون حينئذ محرَّفة عن «كي» العربيَّة، فتركيب المثل لا يقبل ذلك لفظًا ولا معنًى.

أمَّا الأوَّل؛ فلأنَّ «كي» تختصُّ بالمضارع، ومدخولها في المثل ماض، وهو فعل «كان».

وأمَّا الثَّاني؛ فلأنَّ الكلام لم يسق لبيان التَّعليل وذكر الأغراض، وإنَّما سيق لمعنى غير ذلك، وسيأتي بيانه إن شاء الله.

ولقد تتبَّعت لفظة «كي» العاميَّة في تراكيب الدَّارجة، وحاولت إرجاعها إلى «كي» العربيَّة على تمحُّل منِّي؛ فأعيت عليَّ مذاهبي، ثمَّ بَدَا لي بعدَ تأمُّل أنَّ أصل «كي»: «كيف»، وأنَّهم حذفوا آخرها طلبًا للخفَّة، وهم في هذا على محجَّة العرب؛ فإنَّه ربَّما فعلوا ذلك، ومنه قول الشَّاعر:

كي تجنحون إلى سلم وما ثُئرت

فتلاكم ولظى الهيجاء تضطرم

أي كيف تجنحون.

وممَّا يُسأل عنه هنا فيقال: ما وجه مجيء «كيف» في المثل؟ وهل هذا موضع استفهام؟

وجوابه أنْ تعلم أوَّلاً أنَّ «كي» العاميَّة تستعمل على ضربين:

الأوَّل: أن تأتي مخفَّفة من «كيف الاستفهامية»، وقد تقدَّم شاهده من الشِّعر الفصيح، وشاهده من الدَّارجة قول العامَّة: «كي اصبحت وكي امسيت»، وبعض النَّاس يقول: «كي راك»، وهو شايع في كلام أهل الغرب الجزائري، أي كيف أصبحت وكيف أمسيت، وكيف أراك.

والاهتداء إلى هذا النَّوع في الدَّارجة سهل، وهذه طريقة العرب عينها.

والضَّرب الثَّاني: أن تأتي مخفَّفة من الكيف، بمعنى الحال والهيئة، ويدانيها في المعنى الكيفيَّة، وهي من الألفاظ المولَّدة، ومثلها في التَّوليد الكمّ والكمِّيَّة، وهذه ألفاظ صناعيَّة تجري على ألسنة أهل العلوم، والكيفُ والكمُّ من جملة المقولات العشر عند المناطقة، وكثير من الألفاظ العلميَّة مولَّدة، وإنَّما احتاج أهل الفنون إلى توليدها ليتوصَّلوا بها إلى مقاصد علومهم.

فإذا علمت هذا؛ فاعلم أنَّ «كي» في المَثَل مخفَّفة من «الكيف»، لا من «كيف الاستفهامية»، وأنَّ أصل الكلام «كيف كان حي مشتاق تمرة وكيف مات علقول عرجون»، وأنَّ المثال جاء ببيان كيفين مختلفين باختلاف الحياة والموت وباختلاف الوقت، فحالة الاشتياق لها وقت، وحالة التَّعليق لها وقت، ولهذا يشمُّ في «كي» الَّتي في المثل وما جرى مجراها معنى «لمَّا» الوقتيَّة.

فإنْ قلت: هل يستعمل هذا الكيف المزعوم في تراكيب أخرى عاميَّة غير محذوف الفاء حتَّى نعلم أنَّ له أصلاً في الدَّارجة فتأنس النَّفس لما ادَّعيته؟

فجوابه أنَّ هذا شائع في كلامهم، ومنه قول النَّاس: «كيف كيف»، وليس هذا موضع استفهام قطعًا، وإنَّما هو لبيان التَّسوية بين شيئين في الأحوال والهيئات، كما يقولون: «فلان وفلان كيف كيف»، أي لهما كيفٌ واحد، وبعض أهل القطر يقولون: «كيفي كيفك»، أي حالي حالك، وإنَّما حذفوا «أل» لأجل الإضافة، ولهذا فإنَّهم إذا قطعوها عن الإضافة أعادوا إليها التَّعريف، وسيأتي شاهده من كلام العامَّة، وقد شهدتُ امرأتين تختصمان، فقالت إحداهما للأخرى: «كيفك كيفنا»، أي حالتك كحالتنا، وهذه العبارة تقال لمن يرى لنفسه رتبة عالية على النَّاس ليذكرَ بشريَّته وضعفه.

وقد تكلَّمت المرأة بلغة قومها، ولو تكلَّمت بلسان المحروسة وما والاها لقالت: «كي انت كي حنا»، وهذا يقوِّي عندك ما ادَّعيته من الحذف، ومنه قول العامَّة: «كيفنا كيف النَّاس»، وأهل المحروسة يخفِّفون فيقولون: «كي حنا كي النَّاس»، ومن شائع الكلام قولهم: «كي تكبر تفهم»، أي كَيْفُكَ وحالك في كِبَرك أنَّك تفهم، ومن أصرح الشَّواهد قول أهل الشَّرق الجزائري: «على الكيف»، يقولونها في استحسان الأمور، أي على الكيف الملائم، وهو أدلُّ على المقصود في إثبات الكيف المذكور لاقترانه بـ«أل» ودخول الخافض عليه، وقد أعادوا إليها «أل» لقطعها عن الإضافة، وأهل المشرق العربي يقولون: «على كيفك»، أي على حالك الملائم، فيحذفون «أل» للإضافة.

فاعجب لما تفعله ألسنة العامَّة، وأمَّا شواهده من كلام الشُّعراء الجزائريِّين النَّاظمين بالملحون فهي كثيرة جدًّا، ومنها ما جاء في قصيدة ميمية للشَّاعر الجزائري ولد عمر يصف معركة بحرية وقعت بين الأسطول الجزائري والأسطول الدّانماركي قال:

كِيفْ شَافْ السُّلْطَانْ ذَا العَدُو نَادَى لأَهْلِ الحَرْبْ كُلْهُمْ

ولا شكَّ أنَّه لو تكلَّم بلغة الحذف لقال: كي شاف السُّلطان ذا العدو.

واعلم أنَّ العامَّة في بلدنا يستعملون «كيف» أيضًا في الشَّرط مع «ما» الزَّائدة، وهي لفظة «كيفما» العربية، وهي أيضًا محذوفة الفاء في كلامهم تخفيفًا، فيقولون مثلاً: «كيما تقعد نقعد»، أي كيفما تقعد أقعد، وهي أداة شرط في الدَّارجة على مقتضى كلام العرب، ومنه قولهم: «كيما تحب»، أي كيفما تحبُّ، وهذا الَّذي ذكرته لك غاية في الوضوح والجلاء.

على أنَّني أجوِّز أن تكون الكاف في نحو قول العامة: كيما تحب، هي كاف التَّشبيه، وأصل العبارة: كَما تحب، بفتح الكاف،

وتكون «ما» حينئذ موصولة، وتصير حينئذ شاهدًا لبقاء كاف التَّشبيه في الكلام الدَّارجي.

واعلم أنَّ الكيف المذكور في لسان العامَّة قد استعمله الكتَّاب والأدباء، وعنهم انتقل إلى الدَّارجة، ومن ذلك قول شيخ أهل الأدب وسيِّد التَّرسُّل لسان الدِّين ابن الخطيب في نظم رقم الحلل عند ذكر المعتصم من بني العبَّاس:

أَبَاحَ عَمُّورِيَّةً بِسَيْفِه

في خبر يطول شرح كَيْفِه

وإنِّي حين أستقرئ بعض أساليب العامَّة وأتتبَّع تصاريفهم ثمَّ أقابلها بالفصحى؛ لأقضي من ذلك العجب، وأوقن أنَّ أذواق هلال وسليم وغيرهم من بني قحطان ما زالت تجري في عروق العامَّة، وقد علمتَ بما تقدَّم أنَّ لفظة «كي» في الدَّارجة تأتي مخفَّفة من «كيف الاستفهاميَّة»، ومن الكيف، وإذا كانت مقترنة بـ«ما» فهي مخفَّفة من «كيفما».

واعلم أنَّ النُّحاة قد ادَّعوا أشياء في بعض التَّراكيب الفصيحة هي أبعد ممَّا زَعَمَتْه، وهم في كثير من ذلك مصيبون، فإن اعترض علينا نحويٌّ ذكَّرناه بما زعمه أصحابه في أصل «أما أنت» من قول الشَّاعر:

أبا خراشة أما أنت ذا نفر

فإن قومي لم تأكلهم الضبع

فحقٌّ للأديب الألمعي أن يقوم مقام الخليل والأصمعي، وأن يروي المثل للطلاَّب، في شواهد هذا الباب:

فيا نحاة بصرة والكوفه

إن رمتمُ لكيف دون «شوفه»[1]

شواهدًا لفائها المحذوفه

فدونكم لغتنا المعروفه

وإن تكن بنقدكم محفوفه

فإنها في نحوكم مألوفه

فكم سلكتم طرقا مخوفه

تلوون للفظ بها حروفه

■ **قوله: «كان»:** هي «كان» المعروفة عند النُّحاة، ونحن نستعملها استعمال العرب لفظًا ومعنًى، وهي تأتي في العربية ناقصة وتامَّة، وكذلك الشَّأن في الدَّارجة، وهي في المثل الشَّعبي ناقصة؛ لأنَّها لم تكتف باسمها وهو الضَّمير المستتر فيها، بل طلبت الخبر وهو قوله: «حي»، وهذا سبب تسميتها ناقصة، ونظير هذا: كان زيدٌ قائمًا.

ومن مجيئها تامَّة في الدَّارجة قولهم: «هذا ما كان»، أي هذا ما ثبت وحصل، وقولهم: «كان البرد وكان الصِّيف».

وقد اجتمع التَّمام والنُّقصان في قول العلاَّمة الأديب محدِّث البلاد الجزائريَّة بكر بن حماد التِّيهارتي من قصيدة يعتذر فيها لأحد أمراء الدَّولة الرُّستميَّة.

أبا حاتم ما كان ما كان بِغْضَةً

ولكن أتت بعد الأمور أمور

فـ«كان» الأولى ناقصة؛ لأنَّها نَصَبَت الخبر، وهو قوله: «بغضه»، وأمَّا اسمها فهو «ما» الموصولة، وأمَّا «كان» الثَّانية؛ فهي تامَّة؛ لاكتفائها باسمها المستتر فيها، وهي بمعنى ثبت أو ما في معناها، كأنَّه قال: «ما كان الَّذي حصل بغضة».

واعلم أنَّ «كان» تأتي في الدَّارجة متصرِّفة على طريقة العرب، فيأتون بالماضي والمضارع والأمر، فيقولون: كان ويكون وكن مع إشباع الضَّمَّة في الأمر، ويأتون باسم الفاعل في التَّذكير والتَّأنيث فيقولون: «كاين» و«كاينة».

وأمَّا المصدر وهو الكون؛ فلم أسمعه من العامَّة، وما سمعته من بعضهم فهو على سبيل التَّفاصح، لا أنَّه من الدَّارجة، وإنَّما أخذوا ذلك من كلام المتعلِّمين فإنَّهم يتكلَّمون بدارجة ممزوجة بالفصحى؛ فتلقف منهم العامَّة بعض العبارات، ولا يبعد أن يصير المصدر شائعًا في كلامهم.

واعلم أنَّه ينبغي مخاطبة النَّاس ببعض الألفاظ الفصيحة الَّتي تعينهم على أداء المعاني بأقلِّ الألفاظ وأدلِّها على المقصود، فإنَّ كثيرًا من المعاني لا تبلغها الدَّارجة لعدم الألفاظ المؤدِّية إليها، وهذه آفة الألسن المكبَّلة الَّتي يستعين أصحابها بتحريك الأيدي والرُّؤوس عند المحاورة فتتَّسع لهم الإشارات، إذ تضيق عليهم العبارات، ولهذا تقول العامَّة: «يهدر بفمو ويعاون بيديه».

وما أحوج الدَّارجة إلى تهذيبها من الألفاظ الرَّديئة وممَّا خالطها من الأجنبي الَّذي لا صلة له بكلام يَعرب ولا مازيغ، وهذا موضوع أوديته تسيل، وفلواته ترقل فيها المراسيل، وأجدر بأقلام المصلحين أن ترقم في تلافيه.

وهذا رجع إلى ما كنَّا فيه:

■ **قوله: «حي»:** ومعناه واضح ضدُّ ميِّت، وكلاهما موجود في الدَّارجة متصرِّفًا على التَّصاريف العربيَّة، فيأتون بالمصدر فيقولون: الحياة والموت، ويأتون بالمصدر الميمي فيقولون: الممات، ولم أسمعه في مصدر الحياة، ولا يبعد وجوده في لسان البادية، ويأتون بالفعل فيقولون في الماضي: حيا ومات، وفي المضارع:

(1) كلمة «شوفه» في الدَّارجة تعني: التَّشكيك في الأمر، تقول: هذا أمر فيه شوفه، أي فيه نظر وشك، وإدخالها هنا على سبيل التَّظرُّف.

يحيا ويموت، والأمر، ومنه المثل: «أحييني اليوم واقتلني غدوة»، ويقولون: «مُت» بإشباع ضمَّة الميم.

وقوله: «حي»؛ هو خبر لـ«كان»، وهذا يقتضي نصبه، وقد بيَّنَّا في غير موضع فسادَ الإعراب في كلام العامَّة، وأمَّا الخاصَّة من طبقة المتعلِّمين فصرنا نقنع من كثير منهم برفع الفاعل ونصب المفعول وإعطاء بابيّ كان وإنَّ حقَّهُما، ثمَّ نجعلهم بعد ذلك في حلٍّ من حرمات العربيَّة، وأمَّا ما يرجع إلى البلاغة وحسن البيان؛ فقد رُفع فيه التَّكليف وحسب الرَّجل أن نفهم منه المقصود وإنِّي لأقترح على كلِّ من طمحت نفسه إلى أن يكون من أصحاب الكلمة المسموعة من أهل المراتب الدّوليَّة أو الدِّينيَّة أن يأخذوا بطرف من البيان العربي؛ فإنَّ الكلام البليغ ليتغلغل من النُّفوس في مكان عميق فيأخذ بتلابيب القلوب، وهذا يسهل بإدمان النَّظر في كتب الأدب العربي وتدريب اللِّسان، وفي التَّنزيل الحكيم قوله تعالى مخاطبًا نبيَّه الكريم ﷺ: ﴿وَقُل لَّهُمْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ قَوْلًۢا بَلِيغًا ﴿٦٣﴾﴾ [سُورَةُ النِّسَاءِ]، وانظر إلى المثل ما أرق كلماته وما أعذبه في الذَّوق وما أقربه إلى تحصيل المعنى مع قلَّة ألفاظه؛ وما ذلك إلاَّ لبيانه السَّاحر، وفي الحديث الشَّريف: «إنَّ مِنَ البَيَانِ لَسِحْرًا».

■ **أما قوله: «مشتاق»:** فهي كلمة عربية فصيحة، والفعل اشتاق، وكلاهما مستعمل في الدَّارجة بمعناه العربي، ولك في اللُّغة أن تعدِّي الفعل بنفسه أو بالحرف، تقول: اشتاقه واشتاق إليه، والأكثر في لسان الدَّارجة تعدِّيه بنفسه، ولعلَّه كذلك في الفصحى.

وأمَّا المسموع في تصاريف الدَّارجة: ففي الماضي يقولون: اشتاق اللَّحم، والمضارع يقولون: يشتاق الرّقاد، وأمَّا مصدر اشتاق فالاشتياق، والمعبَّر به في الدَّارجة الشَّوق مع قلَّة استعماله، وهو عربيٌّ أيضًا، وهو الَّذي يجري عليه شعراء الملحون، وعليه جريت في الملحون من شعري، ومنه قولي في الأشواق إلى بلدنا الجزائر المحميَّة بالله:

يـا زايـر لوطـان بلـغ السّـــلام
وشـوف لـي صـار في ديك الدّيار
شوقي راه زاد كي نشوف اليمام
نتمنَّى نصير بجنـاحي طيَّـــار
يـا زينة لوطـان ملكتيني بغرام
بالمحال نكون على فراقك صبَّار

وقد اشتملت القصيدة على ذكر المنازل والحبيب وبُعد الدَّار وصولة الدَّهر، وفي البيت الثَّاني المصدر المذكور، وفيه أيضًا لفظة «كي» الَّتي تقدَّم البحث فيها.

واعلم أنَّ المشتاق في الدَّارجة الجزائريَّة قد يُستعمل في غير معاني الأشواق؛ فيطلق على البخيل، فيقال: فلان مشتاق، أي بخيل.

ووجه ذلك أنَّ البخيل يمنع البذل والعطاء، فلا يجود على غيره، بل ولا على نفسه، فتنقطع دونه المطامع، إذ بلغ به اللُّؤم والشُّحُّ إلى أن بدَا في هيئة البائس المعدم المشتاق إلى درهم أو رغيف، وهذا غاية في الذَّمِّ ونسبة الإنسان إلى اللُّؤم والبخل.

■ **وأمَّا قوله: «تمرة»:** فهو واضح أيضًا، وجمعها تمر، وعنقودها العرجون، وشجرتها النَّخلة، وكلٌّ من التَّمرة والتَّمر والعرجون والنَّخلة شائع في الدَّارجة بألفاظها العربيَّة الفصيحة، وانفردت الفصحى في الجمع بالتُّمور والتّمران، ويقال في بائع التَّمر «تمَّار» على زنة «لبَّان»، وهو بائع اللَّبن، و«لحَّام» وهو بائع اللَّحم.

وليت بائعي التُّمور يكتبون على محلاَّتهم «تمَّار» بدلاً من بائع التُّمور؛ لعذوبة اللَّفظ وخفَّته، وفيه إحياء للُّغة العربيَّة.

ولو نظرت الإدارة الجزائريَّة للسِّجلاَّت التِّجاريَّة من النَّاحية اللُّغويَّة لوجدَتْ في الفصحى ألفاظًا جميلة عذبة المنطق، خفيفة الأداء، فيعتمدونها في الألقاب التِّجاريَّة والصِّناعيَّة.

ولقد مررت يومًا على محلٍّ لبيع الأثواب، فقرأت على بابه «بزَّاز»؛ فعرتني من بشائر ذلك هزَّة، وفرحت بها فرح كُثَيِّر بعزَّة، والبزَّاز في اللُّغة: بائع البزِّ، والبزُّ الثياب، ويطلق على أمتعة الدَّار، ثمَّ لمَّا دنوت لأشبع ناظري وأسرح خاطري وجدتها «بـزَار» وهي باللُّغة الفرنساويَّة محلُّ البيع، وأمَّا النُّقطة الَّتي رأيتها على الرَّاء فهي من جملة أوساخ تحيط بباب البزَار ولم أستحسن في دهري وسخا إلا في ذلك الموضع، والمانع من إماطتها اللَّهف إلى جمع المال وعدم احترام الزَّبائن وجفاء الطَّبع وفساد الذَّوق، وهذا موضوع تشطُّ بنا مراكبه، وبقيَّة الكلام على التَّمر في كتاب المعاني.

■ **وقوله: «عَلْقُولُ»:** بفتح العين وتسكين اللاَّم الأُولى وضمِّ اللاَّم الثَّانية، وهو فعل مأخوذ من التَّعليق، وهو عندنا بمعناه عند العرب وكذلك في التَّصريف؛ فيقولون في الماضي: علَّق، وفي المضارع: يعلِّق، وفي الأمر: علّق يا فلان.

ويصوغون منه اسم المفعول، فيقولون: «عرجون معلق»، وأمَّا اسم الفاعل فهو قليل في كلامهم، وأمَّا المصدر فالمسموع من بعضهم: «التَّعليق»، وهو القياس، قال ابن مالك في «اللاَّميَّة»:

لفعلل ائت بفعـلال وفعللـة
وفعّل اجعل له التَّفعيل حيث خلا
مـن لام اعـتـل للـحـاويه تَفعلةً
الـزم وللعـار مـنـه ربَّـمـا بذلا

والمستعمل في مصدر «علق» في مدينة الجزائر المحروسة وما والاها: «التّعلاق»، وهو أيضًا جارٍ على أوزان العرب، كالتّشراب والتّطواف، وهو أيضًا قياس «علق» إذا أريد به تكثير الفعل، قال في «اللاّميَّة»:

وقد يجاء بتفعال لفعّل في

تكثير فعل كتَسيار وقد جعلا

وما جاء من المصادر على زنة «تفعال» فهو في كلام العرب بفتح أوَّله إلاَّ في ألفاظ يسيرة، وكذلك في الدَّارجة؛ فإنَّهم يفتحون أوائل هذه المصادر على أنَّ هذه الأوزان قليلة في استعمال العامَّة، وممَّا يجري في كلامهم: التّعلاق والتّغماس والتّكسال، ويكثر استعمالهم لهذه المصادر الثلاثة في معان قذرة معروفة عند أهل القطر، وبعضها مرتبط ببعض؛ فإنَّ التّعلاق يكون من أجل التّغماس، والتّغماس يكون من أجل التّكسال، وكلُّها معانٍ تدلُّ على خصال مقيتة يعرفها أهل المحروسة، ثمَّ إنَّ الضَّمَّةَ الَّتي على اللاَّم من قوله: «علقولُ» هي في الحقيقة حركة الضَّمير المحذوف؛ فإنَّهم لمَّا حذفوه نقلوا حركته إلى اللاَّم لِلَمْحِ الأصل، ولهذا فإنَّهم إذا نطقوا بتركيب ليس فيه حذف تركوا الضَّمَّة، فيقولون مثلاً: علقولك، بفتح اللاَّم المتَّصلة بالضَّمير، ومثله: علقولها، وهكذا، فوجود الضَّمَّة في مثل هذا التَّركيب إنَّما هو لعلَّة تصريفيَّة، فإذا زالت رجعوا بالكلمة إلى أصلها.

وممَّا يوضِّح لك ما ذكرته في تخريج ضمَّة «علقول»؛ أنَّ أهل مدينة وهران الباهية ومن نحا منحاهم من أهل الغرب يصرِّحون بالضَّمير في مثل هذا التَّركيب، فيعيدون للاَّم فتحتها، فيقولون: علقُولَهْ، وقالولَهْ، وعليه يجري نطقهم بالمثل، وكذلك يفعلون في الإضافة، فيقولون: كتابَهْ، ودارَهْ، وغيرهم يحذف الضَّمير، وينقل حركته إلى الحرف المتَّصل به، فيقولون: كتابُ ودارُ، بضمِّ الباء والرَّاء، ونقل حركة المحذوف إلى ما قبله واقع في كلام العرب.

ومنه ما فعلوه في نحو «خفت»، فإنَّ حركة فاء الفعل الَّتي هي الكسرة؛ إنَّما نقلت إليها من عين الفعل المحذوفة، فإنَّ الأصل «خَوِف» بفتح الخاء وكسر الواو، على زنة «علم»، فلمَّا حذفوا عين الكلمة المكسورة نقلوا حركتها إلى فاء الكلمة فصارت «خفت»، ولذلك فإنَّهم إذا ظهر الحرف المحذوف في بعض التَّراكيب نطقوا بالأصل وأعادوا لأوَّل الكلمة حركتها الأصليَّة وهي الفتحة، وذلك في نحو «خوَّفته»، وتقرير هذه المسائل في علم الصَّرف، فاعجب لهذه التَّصاريف العربيَّة الكامنة في أذواق العامَّة.

وقد استعمل الحكيم كلمة «علق» دون غيرها من الألفاظ الَّتي يتمُّ بها المقصود لمعنى عجيب، وسأبيِّنه لك في كتاب المعاني.

واعلم أنَّ القاف المذكورة في المثل يختلف في نطقها أهل الوطن، وذلك لاختلافهم في كيفية النُّطق بهذا الحرف في سائر الكلام، فمنهم من ينطقها قافًا على النُّطق العربي الفصيح، وهي لغة مدينة الجزائر وما حاذاها، وهي المسموعة في كلام السّكيكديين، ثم يعزُّ وجودها في باقي البلاد، ومنهم من ينطقها كافًا خالصة وهم أهل جيجل الكتامية، فيقولون في القرية والقهوة: الكريه والكهوة، وهي لغتهم المشهورة، وهم يتحدَّثون بها في زماننا هذا، ولا أدري أهي لغة البلاد الجيجليَّة كلِّها أم تختصُّ ببعض المناطق، ولعلَّها لغة بعض قبائل كتامة بقيت فيهم، ومن أهل الوطن من ينطقها بين الكاف والقاف، وهي القاف اليمنية، أدخلها أهل اليمن إلى هذا الوطن، ومنهم انتشرت في أكثر البلاد، وبعض أهل تلمسان ينطق القاف همزة خالصة، وقد اشتهر بها أهل مصر حتَّى نسبت إليهم، فقيل القاف المصريَّة، وأحسب أنَّ ذلك انتقل إلى أهل تلمسان من الأندلسيِّين الوافدين عليهم، وعلى هذا الاختلاف يجري النُّطق في المثل الشَّعبي.

■ **وقوله: «عرجون»:** تقدَّم أنَّه عنقود التَّمر، وقد تعلَّقت به معانٍ يأتي بيانها في كتاب المعاني، ولأهل الوطن طريقتان في حرف الجيم؛ فمنهم من ينطقها على الوجه الفصيح، وعليه أهل المحروسة، ومنهم من يعطيها صفة التَّفشِّي، وهي لغة الأكثرين، وإذا قرأ هؤلاء القرآن الكريم نطقوها بالتَّفشِّي إلاَّ من له دراية بصفات الحروف وكيفيَّة الأداء، وعلى الطَّريقتين يجري النُّطق بالمثل، وقد قدَّمت لك أنَّ أهل وهران ومن والاهم يصرِّحون بالضَّمير في قوله: «علقول» فيقولون: علقوله، وأنَّ غيرهم يحذف الضَّمير مع نقل الحركة، فهاتان أيضًا طريقتان في النُّطق بالمثل.

وأمَّا الواو الَّتي بين الجملتين في المثل فهي واو العطف، وهي جارية في الدَّارجة مجراها في الفصحى وهي لا تقتضي التَّرتيب في عبارات العامَّة فقد يعطفون بها اللاَّحق على السَّابق والسَّابق على اللاَّحق وقد يستعملونها في عطف المصاحب وهو مذهب المحقِّقين من أهل العربيَّة، وإليه أشار في «الخلاصة» فقال:

فاعطف بواو سابقا أو لاحقا

في الحكم أو مصاحبا موافقا

هذا ما سمح به الخاطر وقيَّدته لك المساطر من مباني المثل الشَّعبي: «كي كان حي مشتاق تمرة، وكي مات علقولُ عرجون».

ويليه بعون الله تعالى كتاب المعاني، والحمد لله.

د. وسيلة حماموش

هدي النبي صلى الله عليه وسلم في بيته

قال سبحانه: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓاْ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ [الروم: 21].

قال ابن كثير رحمه الله في تفسير الآية: «فلا ألفة بين روحين أعظم ممَّا بين الزَّوجين».

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا﴾ [النحل: 80].

قال ابن كثير رحمه الله في تفسير الآية: «يذكر ـ تبارك وتعالى ـ تمام نعمه على عبيده، بما جعل لهم من البيوت الَّتي هي سكن لهم، يأوون إليها، ويستترون بها، وينتفعون بها سائر وجوه الانتفاع».

فقد ذكر ـ تبارك وتعالى ـ في الآيتين السَّكن الرُّوحي النَّفسي والسَّكن المادِّي الحسِّي، وهما ركنا البيت المسلم، غير أنَّ أكثر المسلمين تاه مضيِّعًا وقته وماله في تحسين الجانب المادي حتَّى أفرط في ذلك وضيَّع الجانب الرُّوحي والنَّفسي ولم يَجْنِ سوى التَّعاسة والشَّقاء والحزن والهمِّ والشَّتات.

ومظاهر ذلك جليَّة في المجتمعات المسلمة والسَّبب غياب الموازنة بين الجانبين بميزان شرعيٍّ صحيح، ولا شكَّ أنَّ العلاج لهذه الحال المزرية ليس بالصَّعب ولا المعقَّد إنَّما هو سهل يسير على مَن يسَّره الله عليه، يحتاج إلى صدق وعزيمة وهو الرُّجوع إلى الأسوة القدوة نبيِّ الأمَّة محمَّد ﷺ، قال تعالى: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾ ﴾ [سورة الأحزاب].

قال ابن كثير رحمه الله في «تفسيره»: «هذه الآية الكريمة أصل كبير في التَّأسِّي برسول الله ﷺ في أقواله وأفعاله وأحواله».

«وبالجملة؛ فالطَّريق مسدودةٌ إلاَّ على مَن اقتفى آثار الرَّسول ﷺ، واقتدى به في ظاهره وباطنه»[1].

(1) «مدارج السَّالكين» (144/2).

ولقد نقلت لنا أمهات المؤمنين ـ وهنَّ محلُّ الصِّدق والعدالة والأمانة بإجماع أهل العلم والإيمان ـ كلَّ شأن من شؤونه ﷺ في بيته، ولاشكَّ أنَّ هذا الأمر ذو أهمية كبيرة، فكيف كانت حياته ـ عليه الصَّلاة والسَّلام ـ في بيته؟ لنقتدي به ونتأسَّى ونسعى إلى تكوين وتقويم أسرنا على نهجه فقد تركنا على المحجَّة الصَّافية النَّقيَّة، «فالله سبحانه علق سعادة الدَّارين بمتابعته، وجعل شقاوة الدَّارين في مخالفته، فلأتباعه الهدى والأمن والفلاح والعزَّة والكفاية والنُّصرة والولاية والتَّأييد وطيب العيش في الدُّنيا والآخرة، ولمخالفيه الذِّلَّة والصَّغار والخوف والضَّلال والخذلان والشَّقاء في الدُّنيا والآخرة»[2].

لقد نقلت لنا أمهات المؤمنين ـ وهنَّ محلُّ الصِّدق والعدالة والأمانة بإجماع أهل العلم والإيمان ـ كلَّ شأن من شؤونه ﷺ في بيته، ولاشكَّ أنَّ هذا الأمر ذو أهمية كبيرة، فكيف كانت حياته ـ عليه الصَّلاة والسَّلام ـ في بيته؟ لنقتدي به ونتأسَّى ونسعى إلى تكوين وتقويم أسرنا على نهجه فقد تركنا على المحجَّة الصَّافية النَّقيَّة

وأعرض هنا النُّصوص الصَّحيحة من سنَّة رسول الله ﷺ في بيته لنهتدي بهديه، ونعيش حياة التوسط والاعتدال ونبتعد عن حياة الجاهلية التي شغلتنا عن الغاية العظمى التي من أجلها خلقنا، قال تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ ﴾ [سورة الذاريات]، في زمن طغت فيه الماديات كما قال تعالى: ﴿ ٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى

(2) من مقدمة ابن القيم في «زاد المعاد».

﴿ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَوۡلَٰدِۖ﴾، تباهى فيه الناس بأغلى الأثاث، وتنافسوا في بناء الدور والقصور، مُجَمَّلة الظاهر مزيَّنة بالنَّمارق ولكنها خاوية الروح وفاقدة الأنس بالله.

قال الحسن البصري رحمه الله: «كنت أدخل بيوت أزواج النَّبيِّ ﷺ في خلافة عثمان بن عفَّان فأتناول سقفها بيدي»[3].

وعن داود بن قيس قال: «رأيت الحجرات من جريد النَّخل مغشًى من خارج بمسوح الشَّعر، وأظنُّ عرضَ البيت من باب الحجرة إلى باب البيت نحوًا من ست أو سبع أذرع، وأَحْزرُ البيتَ الدَّاخلَ عشر أذرع، وأظنُّ سُمكَه بين الثَّمان والسَّبع نحو ذلك، ووقفتُ عند باب عائشة فإذا هو مستقبلٌ المغربَ»[4].

ليس هذا فقط، فقد كان الرَّسول ﷺ في مأكله ومشربه كذلك.

فعن عائشة رضي الله عنها قالت: «ما شبع آلُ محمَّد ﷺ من خبز شعير يومين متتابعين حتَّى قبض رسولُ الله ﷺ»[5].

بل كان النَّبي ﷺ يدعو الله اليسير من الدُّنيا، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال ﷺ: «اللهم اجعل رزق آل محمد قوتًا[6]»، وفي رواية: «كفافًا[7]»[8].

أمَّا أثاثه وفراشه؛ فقالت عائشة رضي الله عنها تصف فراشه وأثاث بيته ـ عليه الصَّلاة والسَّلام ـ: «إنَّما كان فراش رسول الله ﷺ الَّذي ينام عليه أدَمًا حشوُهُ ليف»[9]، وتقول عائشة رضي الله عنها أيضا: «كان له حصير يبسطه بالنهار، ويحتجره بالليل»[10].

فهلا اقتصدنا في ملذَّات الدُّنيا، فقد أعطي ﷺ مفاتيح خزائن الدُّنيا وكان له من المسكن ما رأيت!

فينبغي علينا التَّقلُّل من الدُّنيا للإقبال على الله والدَّار الآخرة وإلاَّ فتنت الأنفس وقست القلوب وضاعت الأنفاس في التَّزوُّد بالفاني من زخارف الدُّنيا وترك الباقي النَّافع من الأعمال التي تكون لنَا ذخرًا يوم القيامة، قال تعالى: ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ١٣٣﴾ [آل عمران].

وليس لنا سبيل إلى ذلك سوى سبيل نبيِّنا محمَّد ﷺ.

(3) «صحيح الأدب المفرد» (351).
(4) المرجع نفسه (352).
(5) أخرجه البخاري (5423) مسلم (2970).
(6) ما يسدُّ به الرِّيق سمي قوتًا لحصول القوَّة به.
(7) ما لا يفضل عن الشَّيء ويكون بقدر الحاجة.
(8) أخرجه البخاري (6460)، مسلم (1055).
(9) أخرجه البخاري (6452)، ومسلم (2082)، واللَّفظ لمسلم.
(10) أخرجه البخاري (730)، ومسلم (782).

هدي الرسول ﷺ في عبادته:

لقد كان بيت رسول الله ﷺ بيت تقى وعبادة بكلِّ أنواعها؛ فهذا المغيرة بن شعبة يصف لنا اجتهاده ﷺ في العبادة فيقول: قام النَّبيُّ ﷺ حتَّى وَرِمَت قدماه، قالوا: قد غفر الله لك ما تقدَّم من ذنبك وما تأخَّر، قال: «**أفلا أكون عبدًا شكورًا**»[11].

ومن العبادات التي كان النَّبيُّ ﷺ مجتهدًا فيها الصِّيام فقد وصفت عائشة رضي الله عنها شدَّة اهتمامه بها فقالت: «كان رسول الله ﷺ يصوم حتَّى نقول: لا يفطر، ويفطر حتَّى نقول: لا يصوم، فما رأيتُ رسولَ الله ﷺ استكمل صيام شهر إلاَّ رمضان، وما رأيتُه أكثر صيامًا منه في شعبان»[12].

أمَّا عن الصَّدقة؛ فقد كان ﷺ أجود النَّاس لما ورد عن عقبة ابن الحارث رضي الله عنه أنَّه قال: «صلَّيتُ مع النَّبيِّ ﷺ العصر، فلمَّا سلَّم قام سريعًا، دخل على بعض نسائه، ثمَّ خرج ورأى ما في وجوه القَوم من تعجُّبهم لسُرعته، فقال: ذكرتُ وأنا في الصَّلاة تبرًا[13] عندنا، فكرهتُ أن يمسي أو يبيت عندنا، فأمرت بقسمته»[14].

ولقد كان بيت النَّبيِّ ﷺ بيت عبادة وذكر وحثٍّ على ذلك، قال تعالى: ﴿وَٱذۡكُرۡنَ مَا يُتۡلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلۡحِكۡمَةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ٣٤﴾ [الأحزاب].

إنَّ العبادة طريق السُّؤدد والتَّمكين، فأين نحن اليوم من عبادة رسول الله ﷺ في بيوتنا؟ وقد ضيَّع النَّاس الفروض قبل النَّوافل إلاَّ مَن رحم الله!

هدي الرسول ﷺ مع زوجاته:

عن أمِّ المؤمنين عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «خَيْرُكُمْ خَيْرُكُمْ لأَهْلِه، وَأَنَا خَيْرُكُمْ لأَهْلِي»[15].

قال المناوي رحمه الله: «ولهذا كان على الغاية القصوى من حسن الخلق معهن وكان يُداعبهن ويباسطهن... «وَأَنَا خَيْرُكُمْ لأَهْلِي» أي برًّا ونفعًا لهم دينًا ودنيا، أي فتابعوني، ما آمركم بشيء إلاَّ وأنا أفعلُه»[16] اهـ.

ولنقف وقفة تدبُّر لهذا الحديث، ولنتمعَّن قولَ الشَّوكاني

(11) أخرجه البخاري (1130)، ومسلم (2819).
(12) أخرجه البخاري (1969)، ومسلم (1156).
(13) أي ذهبًا.
(14) أخرجه البخاري (1221).
(15) أخرجه الترمذي (3895)، وانظر: «الصَّحيحة» (285).
(16) «فيض القدير» (3/496).

رَحِمَهُ اللهُ في «نيل الأوطار» (545/4) في شرح الحديث: «في ذلك تنبيه على أعلى النَّاس رتبة في الخير وأحقّهم بالاتِّصاف به هو مَن كان خير النَّاس لأهله؛ فإنَّ الأهل هُم الأحقُّ بالبِشر وحسنِ الخُلق والإحسان، وجلب النَّفع ودفع الضَّرِّ، فإذا كان الرَّجل كذلك فهو خير النَّاس، وإن كان على العكس من ذلك، فهو في الجانب الآخَر من الشَّرِّ، وكثيرًا ما يقع النَّاس في هذه الورطة فترَى الرَّجل إذا لقي أهلَه كان أسوأ النَّاس أخلاقًا، وأشحَّهم نفسًا وأقلَّهم خيرًا، وإذا لقي غير الأهل من الأجانب لانَت عريكَتُه، وانبسَطت أخلاقُه، وجادت نفسُه، وكَثُر خيرُه، ولا شكَّ أنَّ مَن كان كذلك فهو محروم التَّوفيق، زائغ عن سواء الطَّريق، نسأل الله السَّلامة». اهـ

ولقد كان ﷺ في خدمة أهله؛ فعن الأسود قال: سألتُ عائشة ما كان النَّبيُّ ﷺ يصنَع في بيته؟ قالت: «كان يكون في مهنة أهله - تعني خدمة أهله -، فإذا حَضَرت الصَّلاة خرج إلى الصَّلاة»[17].

لقد كان ﷺ في خدمة أهله؛ فعن الأسود قال: سألتُ عائشة ما كان النَّبيُّ ﷺ يصنَع في بيته؟ قالت: «كان يكون في مهنة أهله - تعني خدمة أهله -، فإذا حَضَرت الصَّلاة خرج إلى الصَّلاة»

قال ابن بطال: «أخلاق النبيين والمرسلين - عليهم السلام - التَّواضع والتذلُّل في أفعالهم والبُعد عن الترفه والتَّنعُّم، فكانوا يمتهنون أنفسهم فيما يعن لهم ليسنوا بذلك، فيسلك سبيلهم وتقتفى آثارهم»[18].

وليُعلم أنَّ الرَّجل الَّذي يعين زوجتَه فهو علامة على صلاحِه ودينه وخُلقه وتأسِّيه بالنَّبيِّ المصطفى ﷺ.

قال الشيخ الألباني في «آداب الزِّفاف» (ص44): «وليس فيما سبق من وجوب خدمة المرأة لزوجها ما ينافي استحباب مشاركة الرجل لها في ذلك إذا وجد الفراغ والوقت بل هذا من حسن المعاشرة بين الزوجين».

قال ابن بطَّال: «وفيه أنَّ الأئمَّة والعلماءُ يتولَّون خدمةَ أمورِهم بأنفسهم، وأنَّ ذلكَ من فعل الصَّالحين»[19] اهـ.

وكان عليه الصَّلاة والسَّلام مرحًا، فعن عائشة رضي الله عنها قالت: أتيتُ النَّبيَّ ﷺ بحريرة قد طبخَتْها له، فقلتُ لسَودة والنَّبيُّ ﷺ بيني وبينَها: كُلي، فأبت؛ فقلتُ: لتأكُلِنَّ أو لألطِّخَنَّ وجهَك فأبت فوضَعت يدي في الحريرة فطليتُ وجهها فضحك النَّبيُّ ﷺ فوضع بيده لها، وقال لها: «**الطخي وجهها**»، فضحك النَّبيُّ ﷺ لها فمرَّ عُمَر، فقال: يا عبدَ الله؛ يا عبد الله؛ فظنَّ أنَّه سيدخل فقال: «قوما فاغسلا وجوهكما» فقالت عائشة: فما زلتُ أهابُ عُمَر لهيبة رسول الله ﷺ[20].

وكان ﷺ يعدل بين نسائه ويتحمل ما قد يقع من بعضهن من غيرة.

فعن أم سلمة رضي الله عنها أنها أتت بطعام في صحفة لها إلى رسول الله ﷺ وأصحابه، فجاءت عائشة متَّزرة بكساء ومعها فِهرٌ[21] فَفلقت به الصَّحفة، فجمع النبي ﷺ بين فِلْقَتي الصَّحفة وهو يقول: كُلوا، غَارت أُمُّكم - مرتين - ثمَّ أخذ رسول الله ﷺ صحفة عائشة فبعث بها إلى أُمِّ سلمة وأعطى صحفة أم سلمة عائشة[22].

فأين نحن من عفوه وصفحه مع زوجاته ﷺ، فنجد الزوج غضوبًا لأتفه الأسباب حتى إنَّه ليتلفظ بالطلاق من دون سبب معقول، وتخيل أخي - رحمني الله وإياك - لو أن زوجتك فعلت ما قامت به أمنا عائشة رضي الله عنها ماذا أنت فاعل؟؟

بل إن بعض الرجال - هداهم الله - يضربون زوجاتهم ضرب البعير دون شفقة وهذا مخالف لهديه ﷺ فإنَّه لم يضرب في حياته كلها ﷺ خادماً ولا امرأة من نسائه رضي الله عنهن[23]، فعن عَائِشَةَ رضي الله عنها قالت: ما ضَرَبَ رسول الله ﷺ شيئًا قَطُّ بيده ولا امْرَأَةً ولا خَادِمًا إلا أَنْ يُجَاهِدَ في سَبِيلِ اللَّهِ، وما نِيلَ منه شَيْءٌ قَطُّ فَيَنْتَقِمَ من صَاحِبِهِ إلا أَنْ يُنْتَهَكَ شَيْءٌ من مَحَارِمِ اللَّهِ فَيَنْتَقِمَ لِلَّهِ عز وجل»[24].

(17) أخرجه البخاري (676).

(18) «شرح البخاري» (234/9).

(19) «شرح البخاري» لابن بطال (297/2).

(20) «المسند» لأبي يعلى (4476)، و«السُّنن الكبرى» للنَّسائي (8868)، «السلسلة الصحيحة» (3131).

(21) هي الحصاة التي بحجم قبضة اليد أو أكبر قليلا كلمة معروفة خصوصا عند أهل نجد.

(22) أخرجه النسائي (3956).

(23) هناك تفصيل لأهل العلم في مسألة ضرب الزوجة لايسعنا ذكره في هذا المقال.

(24) رواه مسلم (2328).

======== هدي الرسول ﷺ مع أولاده وعشيرته:

كان النبي ﷺ شفيقا على أهله وعشيرته، يدعوهم ويبين لهم فقد كان حريصا على إسلامهم ودعوتهم خوفا عليهم من عذاب النار فعن أبي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَامَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حِينَ أَنْزَلَ اللَّهُ: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾﴾ قَالَ: «يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ - أَوْ كَلِمَةً نَحْوَهَا - اشْتَرُوا أَنْفُسَكُمْ، لاَ أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا، يَا بَنِي عَبْدِ مَنَافٍ لاَ أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا، يَا عَبَّاسُ ابْنَ عَبْدِ المُطَّلِبِ لاَ أُغْنِي عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا، وَيَا صَفِيَّةُ عَمَّةَ رَسُولِ اللَّهِ لاَ أُغْنِي عَنْكِ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا، وَيَا فَاطِمَةُ بِنْتَ مُحَمَّدٍ سَلِينِي مَا شِئْتِ مِنْ مَالِي لاَ أُغْنِي عَنْكِ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا»[25].

بل كان النبي ﷺ راعيا لأبنائه رعاية كاملة تامة حتى في الأوقات الحالكة والصعبة فقد ذكر البخاري أنه لما أراد الخروج إلى بدر أمر عثمان بن عفان رضي الله عنه أن يبقى عند زوجته رقية بنت الرسول ﷺ لأنها كانت مريضة.

فعن ابْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما قال: وَأَمَّا تَغَيُّبُهُ - أي: عثمان بن عفان - عَنْ بَدْرٍ؛ فَإِنَّهُ كَانَتْ تَحْتَهُ بِنْتُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ - وهي: رقية - وَكَانَتْ مَرِيضَةً، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ لَكَ أَجْرَ رَجُلٍ مِمَّنْ شَهِدَ بَدْرًا وَسَهْمَهُ»[26].

نعم إنها المسؤولية الحقة التي لا تحتاج إلى بيان وتوضيح بل إلى اقتداء وعمل؟ فإلى من يلجأ للبحث عن كيفية رعاية أهل بيته بين صفحات علم النفس التربوي الحديث الذي أغلبه مصادر التربية الغربية التي لا تزيد الأمر إلا تعقيدا، هلا رجعت إلى منابع دينك ففي السنة وشروحها ما يغنيك كل الغنى، ففيها الصفاء والنقاء والصدق والهناء والراحة والسعادة

وكان ﷺ رحيما بأولاده؛ فقد أخذ ولده إبراهيم فقبله وشمه[27] وعاتب بعض النَّاس على قسوته وترك رحمة الصَّغير، كما فعل مع الأقرع بن حابس، فعن أبي هريرة رضي الله عنه أنَّ الأقرع بن حابس أبصر النَّبيَّ ﷺ يقبِّل الحسن، فقال: إنَّ لي عشرة من الولد ما قبلت واحدًا منهم، فقال رسول الله ﷺ: «إنَّه من لا يَرحم لا يُرحم»[28].

(25) أخرجه البخاري (2753) ومسلم (206).
(26) أخرجه البخاري (3698).
(27) أخرجه البخاري (1303).
(28) أخرجه البخاري (5997) مسلم (2318).

فمن الآباء والأمَّهات من هم غلاظ شداد على أولادهم فلا رحمة ولا شفقة عليهم يضربونهم ضربا مبرحا لقيامهم بأخطاء يسيرة يمكن التجاوز عنها مع التوجيه لهم والتبيين متناسين أن الراحمين يرحمهم الرحمان.

================ هدي الرسول ﷺ مع خدمه:

أما خلقه ﷺ مع الخدم فلم يختلف عن معاملة غيرهم، فعن أنس رضي الله عنه قال: خدمت رسول الله ﷺ عشر سنين، والله ما قال أفًا قط، ولا قال لي لشيء: لم فعلت كذا وهلا فعلت كذا؟[29].

قال النووي: «وفي هذا الحديث بيان كمال خلقه ﷺ وحسن عشرته وحلمه وصفحه»[30].

قال الشَّيخ ابن عثيمين رحمه الله في شرحه للحديث: «يعني ما تضجر منه أبدًا، عشر سنوات يخدمه ما تضجر منه، والواحد منا إذا خدمه أحد أو صاحَبَه أحدٌ لمدة أسبوع أو نحوه لابد أن يجد منه تضجراً، لكن الرسول ﷺ عشر سنوات وهذا الرَّجل يخدمه، ومع ذلك ما قال له أفٍّ قط»[31].

ومن مكارم أخلاقه أنَّه كان يطعم الخادم فعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إِذَا صَنَعَ لأَحَدِكُمْ خَادِمُه طَعَامَهُ ثُمَّ جَاءَهُ بِهِ وَقَدْ وَلِيَ حَرَّهُ وَدُخَانَهُ فَلْيُقْعِدْهُ مَعَهُ فَلْيَأْكُلْ فَإِنْ كَانَ الطَّعَامُ مشفوها قَلِيلاً فَلْيَضَعْ فِي يَدِهِ مِنْهُ أُكْلَةً أَوْ أُكْلَتَيْنِ»[32].

قال النَّووي: «وفي هذا الحديث الحثُّ على مكارم الأخلاق والمواساة في الطَّعام، لا سيما في حقِّ من صنعه أو حمله لأنَّه ولِيَ حرَّه ودخانه وتعلَّقت به نفسه وشمَّ رائحته، وهذا كلُّه محمول على الاستحباب»[33].

فمن أراد الآخرة وسعى لها سعيها فما عليه إلا أن يعض بالنواجذ على هديه ﷺ في كل شؤون حياته ، وقد رأيت هديه ﷺ في بيته وفقني الله وإياك للعمل بالسنة

والحمد لله أولا وآخرًا، وصلى الله وسلم على نبينا محمد.

(29) أخرجه البخاري (6038)، ومسلم (2309).
(30) «شرح صحيح مسلم» (71/15).
(31) «شرح رياض الصالحين» (300/2).
(32) أخرجه البخاري (5460)، ومسلم (1663).
(33) «شرح مسلم» (135/11).

الاستدلال بالنَّص الشَّرعي بين الاستبصار والاستنصار

أحمد معمر ـ تيارت

إنَّ من الباحثين في المسائل الشَّرعية والمباحث الخلافيَّة، من قد لا يُقصِّر في توسيع الاطِّلاع على نصوص الأدلَّة، وإفساح البحث عن ألفاظها، لكن قد يفوته أن يَطرَح قَنَاعَاته الأوَّلية، وما رَكزَ في نفسه من أحكام مُسبَقة قبل الدُّخول على النَّصِّ، فيشرع في تناول دلالات الأدلَّة شروع من يرتقب من دراستها دليلاً على ما سبق إلى قناعته، وربَّما استبعد أن تعارض مذهبَه، فيلتمس من كلِّ دليل ينظر فيه، حجَّةً تؤيِّد رأيه، وتسوِّغ فَهمَه[1].

وهذا الأسلوب من التَّعامل مع الأدلَّة، في ظلِّ هذه الخلفيَّة الفكريَّة، لا شكَّ أنَّه يعود بالخلل على طريقة استخراج المعاني والأحكام من الأدلَّة وترجيح الأقوال، فيرجِّح غير الرَّاجح واهمًا أنَّه استجاب لقوَّة الدَّليل، وهو في نفس الأمر اطمئنان من نفسه لشيء معهود ليس إلاَّ، كما قال الشَّيخ المعلِّمي رَحِمَهُ اللهُ:

«وإذا سَبَق إلى نفس الإنسَان أَمرٌ ـ وإن كَانَ ضَعيفًا عنده ـ ثُمَّ اطَّلَع عَلَى مَا يحتَمل مُوافَقة ذَلك السَّابق، ويحتَمل خلافَه، فإنَّه يترجَّح في نَفسه مَا يُوافقُ السَّابق، وقَد يَقوَى ذلك في النَّفس جدًّا وإن كَانَ ضَعيفًا»[2].

كمن استبق البحث والتَّحرير، باعتقاد حكم الحرمة لمسألة ما ـ مثلاً ـ ثمَّ طفق يبحث في الأدلَّة الشَّرعيَّة، فستجده يفسِّر دلالات الدَّليل بما يتلاءم مع ما خَامَر عقله قبلُ، من اعتقاد الحُرمَة ـ من حيث يَشعر أو لا يَشعر ـ وإذا ضعفت تقواه، وقلَّ تَحَرُّزُه، فَسَينخَدع لهوى نَفسه الماثل في صُورة اتِّباع الدَّليل!

وهذا المحلُّ مَعثَر أَفهَام، فإنَّ طبيعة ظواهر الأدلَّة قد لا تبخل بالتَّشكُّل وفق مراد المستدلِّ المتعنِّت! إذا تفلَّت من قواعد الاستدلال وضوابط تفسير الأدلَّة، فيكون مَع الدَّليل، كصَانع الفَخَّار مَع الطِّين، يُنشِئ من عَجِينَته مَا يَهوَاه.

وَلا يَعزُب عَن البُصَرَاء أَنَّ هَذه المسَالك ممَّا تُبتَلى فيهَا القُلُوب، ويُمحَّص بها مَا في الصُّدُور.

ولذلك ليس من الإنصاف في شيء، أن نقرأ الأدلَّة والنُّصوص الشَّرعية **قرَاءَة استنصَار** فَنتَكلَّف تَنزيل ظَواهر دَلالاتها علَى نحو يَنصر آرَاءَنا الخَاصَّة، ممَّا قد استَحسَنَّا قَبولَه قَبلَ تأمُّل الدَّليل؛ لأنَّهَا قرَاءَة فَاسدَة! نَحرم بها أنفسَنا الانتفَاع بنُور الأدلَّة الشَّرعيَّة، وهدايتها إلى مُراد الله عزَّ وجلَّ.

بل الواجب أن نقرأ الأدلَّة **قرَاءَة استبصَار**، نَستبصرُ بها الحكمَ الشَّرعي، فنُسَلِم القيَاد لمقتَضى النَّص، وفقَ المنهَج العلمي للاستدلال، حَتَّى نَنتَهي إلى مَا تَصير إليه الحُجَّة الشَّرعية، غير مُكتَرثين بالتَّخلِّي عَن أيِّ رأي أو مذهبٍ، أَنسنَا إليه في غيَاب الدَّليل.

قال ابن الجوزي رَحِمَهُ اللهُ:

«إنَّمَا يَنبَغي للإنسَان أَن يتَّبع الدَّليل، لا أَن يَتَّبع طَريقًا ويَتطلَّب دَليلَها»[3].

وقد تَولَّى الإمَامُ الشَّاطبي على

---

(1) والباحث الَّذي يستصحب هذه النَّفسيَّة، قد يُغريه أن يجد ظواهر الأدلة طيِّعة أمام غرضه، فإنَّ دلالاتها لا تتأبَّى حتَّى على تمحُّل المبطلين، فيولِّدون منها ـ بعد تعسُّف ـ ما ينصر تحريفهم، قال الإمام الشاطبي رَحِمَهُ اللهُ: «ولذلك لا تجد فرقة من الفرق الضَّالَّة ولا أحدًا من المختلفين في الأحكام، لا الفروعيَّة ولا الأصوليَّة يعجز عن الاستدلال على مذهبه بظواهر من الأدلة» اهـ [«الموافقات» (3/54)].

(2) «التَّنكيل بما في تأنيب الكوثري من الأباطيل» (1/56).

(3) «صيد الخاطر» (ص29).

طَريقته في التَّأصيل، كَشفَ سَبيلَ أَخذِ الأدلَّة، ومَيَّزَ بين مسالك الاستهداء بالنُّصوص الشَّرعية، فقال رَحِمَهُ اللَّهُ:

«فاعلم أنَّ أَخذ الأدلَّة على الأحكَام يَقع في الوُجود على وَجهين:

أحدهما: أن يُؤخذ الدَّليل مَأخَذ الافتقار واقتباس مَا تضمَّنه من الحكم، ليَعرض عليه النَّازلة المفروضَة، لتَقع في الوجود على وفاق ما أعطى الدَّليل من الحكم.

أمَّا قبل وقوعها فبأن توقع على وفقه، وأمَّا بعد وقوعها فليَتلافى الأَمر، ويَستَدرك الخطأ الواقع فيها، بحيث يَغلب على الظَّنِّ أو يَقطَع بأن ذلك قصد الشَّارع، وهذا الوَجه هو شأن اقتبَاس السَّلف الصَّالح الأحكَام من الأدلَّة.

والثَّاني: أن يؤخذ مأخذ الاستظهار على صحَّة غرضه في النَّازلة العارضة، أن يظهر في بادئ الرَّأي موافقة ذلك الغرض للدَّليل، من غير تحرٍّ لقصد الشَّارع، بل المقصود منه تنزيل الدَّليل على وفق غرضه، وهذا الوجه هو شأن اقتباس الزَّائغين الأحكام من الأدلَّة.

ويظهر هذا المعنى من الآية الكريمة: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ﴾ [آل عمران: 7]، فليس مقصودهم الاقتباس منها، وإنَّما مرادهم الفتنة بها بهواهم؛ إذ هو السَّابق المعتبر، وأخذ الأدلَّة فيه بالتَّبع، لتكون لهم حجَّة في زيغهم، ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ﴾ [آل عمران: 7] ليس لهم هوى يقدمونه على أحكام الأدلّة، فلذلك ﴿يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا﴾ [آل عمران: 7]، ويقولون: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا﴾ [آل عمران: 8]، فيتبرَّؤون إلى الله ممَّا ارتكبه أولئك الزَّائغون.

فلذلك صار أهل الوجه الأوَّل محكِّمين للدَّليل على أهوائهم، وهو أصل الشَّريعة؛ لأنَّها إنَّما جاءت لتخرج المكلَّف عن هواه حتَّى يكون عبدًا لله.

وأهل الوجه الثَّاني يحكمون أهواءهم على الأدلَّة، حتَّى تكون الأدلَّة في أخذهم لها تبعًا»[4] اهـ كلامه رَحِمَهُ اللَّهُ، وفيه ما يهدي اللَّبيب إلى أنَّ جادَّة السَّلف تعظيمُ حُرمة النُّصوص، باستعراض الأحكام على محجَّتها، والإذعان للازم حجَّتها، فلا يثبت عندهم لشيء قرار، حتَّى تنتصب أدلَّته، وتصحَّ براهينه، خلافًا لأهل الزَّيغ والبدعة، الَّذين تسبق أهواؤهم المختلَّة مقتضى صحيح الأدلَّة، فينتحلون العقائد والآراء، ثمَّ يستتبعون نصوص الشَّرع لتأكيدها، كُرهًا على كُره!

قال ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ:

«وأهل البدع سلكوا طريقًا آخر ابتدعوهَا اعتمَدوا عَلَيها، ولا يَذكرون الحَديث، بل ولا القُرآن في أُصولهم، إلاَّ للاعتضَاد لا للاعتمَاد»[5].

وقال الإمام وكيع رَحِمَهُ اللَّهُ:

«من طلب الحديث كما جاء فهو صاحب سُنَّة، ومن طلب الحديث ليقوِّي هَواه فهو صَاحب بدعَة»[6].

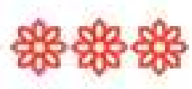
علينا أن نتجاوز حسن الظَّنِّ بأنفسنا، ونرتقي إلى مستوى أهليَّة الاستدلال في موارد النِّزاع، بإعداد العدَّة الإيمانيَّة والعلميَّة، لتنصرف قلوبنا إلى الإخلاص والتَّجرُّد على عتبة الدَّليل، حتَّى ييسِّر الله علينا الانفكَاك من أَسر أفكارنا وآرائنا المسبقة، بعرض اقتناعَاتنا على الحجَّة الشَّرعيَّة، وعدم التَّقدُّم بأحكامنا بين يدي الكتاب والسُّنَّة.

قال الشَّيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ:

«لكن بلاء بعض العلماء أنَّهم يحكمون قبل أن يستَدلُّوا، أو يعتَقدُون قبل أن يَستَدلُّوا، ونحن نقول: استدل ثمَّ اعتقد، استَدل ثمَّ احكُم، هذا الصَّواب»[7]، «فالإنسان يجب أن يفهم النُّصوص على ما هي عليه، ثمَّ يكون فهمه تابعًا لها، لا أن يُخضع النُّصوص لفهمه أو لما يعتقده، ولهذا يقولون: استدل ثمَّ اعتقد، ولا تعتقد ثمَّ تستدلَّ؛ لأنَّك إذا اعتقدت ثمَّ استدللت، ربَّما يحملك اعتقادك على أن تحرِّف النُّصوص إلى ما تعتقده، كما هو ظاهر في جميع الملل والمذاهب[8] المخالفة لما جاء به الرَّسول ـ عليه الصَّلاة والسَّلام ـ، تجدهم يحرِّفون هذه النُّصوص؛ لتوافق ما هم عليه»[9].

من استدَلَّ ثمَّ اعتَقد، فقد رَشَد، ومن اعتقد ثمَّ استدلَّ، فقد زَلَّ.

والحمد لله ربِّ العالمين.



(4) «الموافقات» (3/54 و55).
(5) «منهاج السُّنَّة النَّبويَّة» (7/37).
(6) نقله الإمام البخاري في كتابه «جزء رفع اليدين» (ص105).

(7) «جلسات رمضانيَّة 1410هـ ـ 1415هـ» لابن عثيمين ـ (الدَّرس 19/ص4)، أصله دروس صوتيَّة مفرَّغة.
(8) ما فتئ أهل العلم، يبيِّنون أنَّ سبيل الاعتقاد قبل الاستدلال، مروق عن منهج السَّلف، وأنَّه مَدرَجة أهل الأهواء إلى إفكهم الآثم، من تأويل فاسد، وتحريف كاسد، ينظر «الصَّواعق المرسلة» (1/230 ـ وما بعدها).
(9) «القول المفيد شرح كتاب التوحيد» (ص491).



واحة الإصلاح

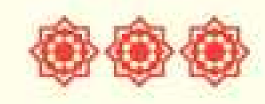
إعداد: أسرة التحرير

مِن قواعد المبتَدعة

❑ قال العلَّامة الشَّوكاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

«وقد جرت قاعدَة أهل البدع ـ في سابق الدَّهر ولاحقه ـ بأنَّهُم يفرحُون بصدور الكلمَة الواحدَة عن عالم من العلمَاء، ويبالغون في إشهارها وإذاعتها فيمَا بينهُم، ويجعلونَها حجَّة لبدعتهم ويضربون بها وجه من أنكر عليهم؛ كمَا تَجدهُ في كُتُب الرَّوافض من الرِّوَايَات لكلمات وَقعت من عُلَمَاء الإسْلَام فيمَا يتعَلَّق بمَا شَجَر بَين الصَّحَابَة، وَفي المناقب والمثالب، فَإِنَّهُم يطيرون عنْد ذَلك فَرحا ويجعلونه من أعظم الذَّخَائِر والغَنائم».

[«أدب الطَّلب ومنتهى الأرب» (ص43)]

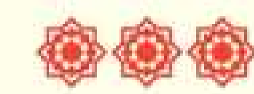


عواقب السُّكوت عن الحقِّ

❑ قال الإمام ابن عقيل رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

«لوْ سكتَ المُحقُّونَ ونطقَ المُبطلُونَ لتعَوَّدَ النَّشْءُ ما شاهَدُوا، وأنكرُوا ما لَمْ يُشاهدوا، فمتى رامَ المُتديِّنُ إحياءَ سنَّة أنكرَها النَّاسُ وظَنُّوها بدعَةً».

[«الفروع» لابن مفلح (180/3)]

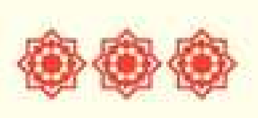


خلطاء السُّوء

❑ قال الإمام ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

«وكم جلبَت خُلطةُ النَّاس مِن نقمة، ودَفَعت مِن نعمة؛ وأنزلَت مِن محنة، وعطَّلت مِن منحَة، وأحلَّت مِن رزيَّة، وأوقَعَت في بليَّة؛ وهل آفةُ النَّاس إلَّا النَّاس؟ وهَل كان على أبي طالب عند الوَفَاة أضرَّ من قُرناء السُّوء؟ لم يزالُوا به حتَّى حالُوا بينَه وبينَ كلمَةٍ واحدَةٍ تُوجِبُ له سعادةَ الأبد».

[«مدارج السَّالكين» (453/1)]



تسمية المبتَدعة بأهل الأَهواء

❑ قال الإمام الشَّاطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

«ولذلك سُمِّي أهلُ البدع: أهلَ الأهواء؛ لأنَّهم اتَّبعُوا أهواءَهم فلَم يأخُذوا الأدلَّة الشَّرعيَّة مأخَذَ الافتقار إليها، والتَّعويل عليها، حتَّى يصْدُروا عنها، بل قدَّموا أهواءَهم، واعتَمدوا على آرائهم، ثمَّ جعَلوا الأدلَّةَ الشَّرعيَّةَ منظورًا فيها مِن وراء ذلك».

[«الاعتصام» (102/3)]

أنفع النَّاس لك وأضرُّهم عليك

❑ قال الإمام ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

«أنفَع النَّاس لكَ رجل مكَّنك من نفسه حتَّى تزرَعَ فيه خيرًا أو تصنَع إليه معروفًا؛ فإنَّه نعم العَون لك على منفعَتك وكمالك، فانتفاعُك به في الحقيقة مثل انتفاعه بك أو أكثر؛ وأضرُّ النَّاس عليك من مكَّن نفسَه منكَ حتَّى تعصي الله فيه، فإنَّه عونٌ لك على مضرَّتك ونقصك».

[«الفوائد» (ص192)]



دُرَر من كلام شيخ الإسلام ابن تيميَّة

❑ «وأكثر ما يُفسِد المُلكَ والدُّولَ طاعةُ النِّساء»

[«اقتضاء الصراط المستقيم» (6/2)]

□□□

❑ «إنَّ سبَّ الرُّسُل والطَّعن فيهم ينبُوع جميع أنواع الكُفر، وجماع جميع الضَّلالات، وكلُّ كُفر ففَرْعٌ منه؛ كما أنَّ تصديقَ الرُّسل أصلُ جميع شُعَب الإيمانِ، وجماع مجموع أسبابِ الهدى»

[«الصارم المسلول» (ص251)]

□□□

❑ «والواجب على مَن أراد أن يعرفَ مرادَ المتكَلِّم أن يرجعَ إلى لغَته وعادته الَّتي يُخاطبُ بها؛ لا نُفسِّر مُرادَه بما اعتادَه هُو من الخطاب؛ فما أكثَر ما دخَلَ من الغَلط في ذلكَ على مَن لا يكونُ خبيرًا بمقصُود المتكَلِّم ولغَتِه»

[«الصَّفدية» (84/2)]

□□□

❑ «مَن أخبَر عن الشَّيء بخِلاف ما هُو عليه من غَير اجتهادٍ يُعذَر به، فهو كذَّاب؛ ولهذَا يصفُ الله المشركين بالكَذِب، وكثيرٌ منهم لا يتعمَّد ذلك»

[«النُّبوات» (1078/2)]

□□□

❑ «التَّأييد بحَسب الإيمان؛ فمَن كان أقوى من غَيْره، كانَ جُندُه منَ الملائكَة أقوَى، وإن كانَ إيمانُه ضعيفًا كانت ملائكتُه بحَسب ذلك؛ كمَلَك الإنسان وشيطانه»

[«النُّبوات» (1062/2)]

□□□

❑ «وكلَّما كانَ القلبُ أتمَّ حياةً، وأعرفَ بالإسلام الَّذي هُو الإسلام، لستُ أعني مجرَّدَ التَّوسُّم به ظاهرًا أو باطنًا بمجرَّد الاعتقادات من حيثُ الجملة، كان إحساسُه بمُفارقَة اليهود والنَّصارى باطنًا وظاهرًا أتمَّ، وبُعدُه عن أخلاقِهم الموجودة في بعضِ المسلمين أشَدَّ»

[«اقتضاء الصراط المستقيم» (94/1)]

□□□

❑ «كلَّما كانَ المرءُ أفقهَ في الدِّين وأبصَرَ بمَحَاسنِه كانَ فرارُه عن الحِيَل أشَدُّ»

[«الفتاوى الكبرى» (171/6)]



❑ نشكر الأخ الفاضل سفيان بن طوط من مدينة مغنية، ولاية تلمسان شكرا جزيلا على اهتمامه بالمجلة «الميمونة»، وثنائه عليها، واغتباطه بموضوعاتها، كما نشكره على حسن ظنه بالقائمين عليها، ورغبته في الاشتراك فيها دليل على ذلك، وفقه الله وأعانه.

ooo

❑ أما الأخ المكرم عبد الرزاق الونيسي من مدينة شرشال ولاية تيبازة، فنشكره على تواصله معنا، ورغبته الأكيدة في تجديد الاشتراك في المجلة، لأنه وجد فيها خيرا عظيما كما ذكر. ونسأل الله لنا وله الهداية والثبات والبطانة الصالحة، إن ربنا لسميع الدعاء.

ooo

❑ وأرسل إلينا الأخ المفضال محمد بن صالح من مدينة طولقة ولاية بسكرة كتابا ضمنه عبارات الشكر والتقدير والمؤازرة للمجلة والقائمين عليها.

فجزاه الله خيرا، وأعظم له المثوبة في الدارين.

ooo

❑ وفرحنا فرحا عظيما باهتمام الأخ يوسف تقار من ولاية الشلف بلغة الضاد، وإشارته إلى بعض الكتب في فقهها، فنشكره على ذلك ونشجعه على زيادة العناية بذلك.

أما مقترحه فهو وجيه، وجدير بالأخذ به، والله المستعان وعليه التكلان.

ooo

❑ أما الأخت الكريمة شهيرة رباعي من منطقة برج الكيفان ولاية الجزائر، فهي مشكورة على جهدها الطيب، ومحاولتها الموفقة في شرح حديث: «لاَ تَحَاسَدُوا، وَلاَ تَنَاجَشُوا»، وبيان معانيه، وتوضيح مقاصده، وننصحها بالمواصلة في هذا الدرب، زادها الله توفيقا وسدادا.

ooo

❑ ونشكر كذلك الأخ إبراهيم أكليل من مدينة حمادي ولاية بومرداس على اقتنائه للمجلة، واهتمامه بموضوعاتها، والعناية بمضمونها، ورغبته في دعمها، فجزاه الله خيرا.

ooo

❑ كما نشكر الأخ يحيى بوزيدي من مدينة تلاغ ولاية بلعباس، على غيرته على السنة، وتحذيره من الشيعة؛ حيث أرسل إلينا مقالا عنوانه «الصنف الأخطر من المتشيعين»، بين فيه خطورة التشيع، ونشاط الشيعة الديني، والسياسي في الجزائر، وتوزعهم في الولايات، وانتشارهم في العائلات، مما قد يشكل خطرا على البلاد والعباد مستقبلا.

فجزاه الله خيرا على اهتمامه بهذا الموضوع، وجعله الله من الهداة المهتدين.

ooo

❑ والشُّكر الجزيل موصول إلى الأخ محمَّد بوجناح ـ وفَّقه الله ـ على محاولته الشِّعريَّة وذلك في قصيدة يثني فيها السُّنَّة وأهلها وتعظيم العلماء، بارك الله فيه ووفَّقه لكلِّ خير.

ooo

❑ **تنبيه:** ===============================

ورد في العدد السابق في مقال: الحديث الوارد في بول الأعرابي في المسجد:

وهذا الأعرابي قيل: إنَّه ذو الخويصرة اليماني، وقد جاء ذلك من طريق ضعيفة مرسلة عند أبي موسى المديني في كتاب الصَّحابة وقد صار من رؤوس الخوارج.

فقوله: وقد صار من رؤوس الخوارج، خطأٌ ناتج عن الخَلط بين شخصَيْن متَشابهيْن: ذو الخويصرة اليَماني، وذو الخويصرة التَّميمي، والثَّاني هو رأس الخوارج، كما نبَّه على ذلك الشَّيخ محمَّد بن هادي المدخلي حفظه الله، وبارك فيه على عنايته بالمجلَّة وحُسن نصيحَته.